شغف

دانية قصاص

رواية



شـــفـق

رواية



دانية ياسر قصاص

الإهداء:

إلى كل قلبٍ شجاع.

إلى كل شخصٍ تحدّى آلامه وتقبلها حتّى تَشفى.

وإلى كل من أضاء شمعةً في حياة الآخرين واثقاً بأن إنارة دروب الناس لن تُعتِمَ دربه.

إلى كل مَن تحلّى بالصبر اتجاه آلام من يُحبهم، وشاركهم لحظاتهم الصعبة آخذاً بأيديهم بكل دفءٍ وحب.

إلى كل من أدرك بأن مشاعره قد تنحرف به لسبيلٍ خاطئ، فكان شجاعاً وتحدى قلبه ليكون على الطريق الصحيح.

إلى من أدرك بأن طريق الحياةِ طويل ومليء بالعقبات، فلم يستسلم.

"أشد الآلام على النفس: آلام لا يكتشفها طبيب، ولا يستطيع أن يتحدث عنها مريض"

ـمصطفى السباعي.

في ذلك الصباح المشمس اشترتْ كأساً من القهوة سريعة التحضير على باب الجامعة، وذهبت تمشى بين الأشجار حتى وصلت لمقعدها تحت شجرة وارفةِ الظلال، كانت تُسميها شجرتها وتُفضل الجلوس تحتها دائماً، وضعت أوراقها ومحاضراتها وكأس القهوة على المقعد، وأخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها لتتأكد من أن حجابها على ما يرام، عدلته قليلاً، وهمّت بالجلوس قبل سماع صوت صديقتها ليان تُلقي عليها تحية الصباح، فردتّها شفق وقبّلتها ثم جلستا، سألتها ليان:
ـكيف حالكِ؟ عيناكِ لا تُريحني؟ هل قابلتِ براء البارحة؟ ثم إني اتصلتُ بك مساءً ثلاثَ مرات، كنتُ في المنزل وحدي وأحتاج الحديث لأحد كيلا أستوحش المكان، لماذا لم تجيبي على الاتصالات يا شفق؟

تنهدت مردفة ثم رشفت من قهوتها:

_لم أقابله، كانت حالتي سيئة جداً، ثم خرجتُ ونسيتُ هاتفي في المنزل.

_أقلقتني، ماذا حدث، هل أنتِ على ما يرام الآن؟ أخذتِ الدواء؟

_ليت ما أعاني منه دواءٌ يا ليان.

قالتها بشجنٍ عميق وأخفضت رأسها، أمسكت ليان بكفّها مردفة:

_هيا تحدثي يا شفق، ما بكِ؟

_البارحة وأنا أنشر الملابس فقدتُ وعيي تقريباً وعثرتْ عليَّ زوجةُ عمي، أقفُ على حرفة الشرفة، وأقدّم قدماً على الأخرى كمن يريد الانتحار، لولا مجيئها في اللحظة الأخيرة والتشبث بي لإنزالي لكنتُ في عداد الموتى الآن.

_ كيف ذلك؟

قالت بصوت خافت مرير:

_لا أدري وما أوجعه من جوابٍ يا ليان!، هذه المرة الثانية التي يرونني بها بصدد الانتحار، والأقسى أنني حينما يخبروني بذلك لا أتذكر شيئاً البتة! فأبكي أو أصمت كمن على رأسه الطير، خرجتُ بعدها معهم لأُرّوحُ عن نفسي في الهواء الطلق، لم أكن في حالة

جيدة لتذكر هاتفي أو لإجابة الاتصالات، دعي الأمر سراً بيننا يا ليان اتفقنا.

ضمتها إليها بحنان وهي تعدها بذلك.

*****

كان جالساً في الشرفة ساهماً في أفكاره، يحتسي قهوته ويراقب المارة بلا اهتمام، على يمينه تصطف النباتات أصيص لجانب أصيص، وعلى يساره يترنم الكاريان الأصفران بصوتهما العذب، أقبلت السيدة ابتسام للشرفة ببسمتها المعهودة، التي تُزيّن ثغرها، ورائحة البُن تسبقها، حاملة الصينية بيديها، أردفت بلطف:

ـصباح الخير يا مازن، أراك هنا للآن لماذا لم تذهب لعملك للآن؟

ـصباح النور يا خالتي، كنتُ أنتظركما لدي ما أقترحه عليكما، أين أمي؟

ـتُصلي الضحى، ستأتي حالما تنتهي، تفضل فنجانك يا بني.

ـشكراً، سبقتكما علي ألا أتأخر، سأحدثكِ وتشاوري مع أمي في الموضوع، ثم أخبراني برأيكما، أفكر يا خالتي ابتسام، بـ..........

حدثها، ثم استأذن دعت له بالسلامة والرزق، كان يحب مناداتها بخالتي لطيب علاقتها بأمه كانتا كالأختان، وذلك ما أورث محبة بين أبناء العم، بعد موت عامر والد شفق رحمه الله، أصرَّ العم سعد على مجيئ زوجة أخيه وابنتها للعيش معهم، فوافقت ابتسام بعد الرفض لعدة مرات، على الأقل لأجل ابنتها وللابتعاد عن الوحدة القاتلة خاصة بأنها لا تملك أهلاً ولا أقارب.

*****

خرجتا من القاعة تضحكان وأيديهما متشابكة ببعضها، لماذا وُجدتْ الفراغات بين أصابعنا؟ بالطبع لتتشابك مع أصابع أخرى لتمنح الشعور بالأمان، كانت ليان تعرف كيف تُغير مزاج صديقتها وتُبدد حزنها مرحاً، استوقفهما براء، ملقياً التحية، مرتدياً قميصاً رمادي اللون مع سترة وبنطال شديدا السواد، كان براء طويل القامة يقف بوقار وببعضٍ من الحياء، عدّلَ من وضع نظاراته مُردفاً بعد أن ردتا التحية:

_كيف حالكما؟، لم تأتي البارحة يا آنسة شفق، أرسلتُ لك رسالة أيضاً ولم تجيبي، أردت الاطمئنان عليكِ فحسب.

_نحن بخير، شكراً لسؤالك، لكن شفق أضاعت هاتفها البارحة وكانت قد نسيته في بيت صديقتِنا، وقد استردتُّه صباحاً.

أضافت شفق على كلام ليان:

_صحيح، وأعتذر لذلك.

_حسناً لا مشكلة، الحمد لله أن الأمور على ما يرام، آنسة شفق هل لي برقم الوالد من فضلك؟ أرى أن أتحدث بالأمر رسمياً بنفسي قبل أن تخبريهما.

ردت ليان:

_هل تعرف مطعم اللقمة الطيبة؟ يديره ولي أمر شفق بإمكانك زيارته إن أردتَ التحدث إليه.

_أعرفه طبعاً، حسناً وقتاً طيباً، السلام عليكم.

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته" ردتا معاً، ثم نظرت شفق بانزعاج لليان:

_من وكلك الناطق الرسمي لي يا موجّبة أنتِ؟ ما هذا الذي قلتِه له؟ لم أحسم أمري بشأن الارتباط بعد.

_أعطه فرصة ثم احسمي الأمر، رأيتُك نجلى، قلت لنفسي أنقذي الموقف يا ليان بحكمتك، إنه نداء الواجب يا رفيقة.

سخرت شفق من آخر كلمتين مقلدة إياها، وضحكتا.

*****

في الصباح الباكر الهادئ إلا من هديل الحمامات الشجيّ، كانت تقف إيناس، تأملت السماء لهنيهة من الزمن، ثم تنفست بعمق ومضت لتشتري كوباً ورقياً من القهوة المُرّة كما تحبها، وركبت في سيارتها منطلقة إلى المستشفى حيث عملها، في طريقها لمحت شاباً مَغمياً عليه في طرف الشارع والدماء تملأ وجهه والطريق، توقفت بسرعة نزلت مسرعة نحوه، مدت يدها تتحسس نبضه، إنه لا يزال حياً، ضميرها يؤنبها على تلكؤها بحمله للمستشفى في طريقها وتفكيرها المنطقي يمنعها حتى لا تقع في المشاكل، ألا يكفيها أن عائلتها تنتظر سبباً من الهواء حتى تثنيها وتعيدها للبقاء في المنزل أبداً، وقفت ومشت قليلاً عساها ترى أحداً يعرفه أو يساعدها في حمله، لكن لا أحد، من سيتمشى منذ السابعة صباحاً؟! تحاملت على نفسها وحملته لسيارتها بصعوبة ثم مسحت الدماء من على وجهه، وصلت هناك وأخذته للطبيب المختص، فاختصاصُها طب الأسنان.

بعد ساعة إلا ربع خرج الطبيب قائلاً:

ـلن أخبرك بأن الجروح خطيرة لكن الرضوض كثيرة، وبعض الجروح مع الأسف ستبقى تشكل ندوباً دائمة إن لم تُعالج من قبل طبيب تجميل، وأعتقد أن هذا ضروري لأن ملامحه ستتشوه، إضافة إلى ذلك هناك إصابة في رأسه أيضاً إثر ضربة قوية، حدثيني يا آنسة ما سبب كل هذا، ماذا حدث مع الشاب؟

أجابته بارتباك:

ـلا أعرف عنه شيئاً وجدتُه وأنا في طريقي إلى هنا، كان واقعاً في طرف الشارع والدماء تغطيه فأحضرته إلى هنا، بالمناسبة أنا إيناس طبيبة أسنان أعمل هنا في الطابق الثالث.

صمتت ثم تابعت:

ـما الذي فعلتَه سيدي الطبيب ومتى تتوقع بأنه سيستيقظ؟

ـعالجتُ جروح وجهه وكذلك إصابة رأسه، وعلقت له سيروم فيتامينات يحتاجها جسمه، وأعطيته حقنة مسكن للآلام، ربما بعد ساعة سيصحو، اقترح عليكِ مقابلة الطبيب أمجد إنه بارع في عمليات التجميل الناتجة عن الإصابات وسيساعده لإعادة ملامحه الطبيعية بوقت قياسي، تفضلي هذه بطاقة عيادته وعليها رقمه أيضاً.

ـحسناً، جزاكَ الله خيراً سأذهب على الفور.

ذهبت لسيارتها، جلست واضعة البطاقة أمامها، انتبهت فجأة للقهوة التي لم تشربها بعد، وقالت:

ـأنا فتاة لا أصلح للرواق، أصلح للوقوع بما لا تُحمد عقباه فحسب، حسبي الله ونعم الوكيل.

أخرجت هاتفها واتصلت بالطبيب واتفقت معه على المجيء حالاً حيث لم يأتي أحدٌ بعد لتكون هي الأولى.

"نحنُ نعلم.. لكنَّا أحياناً نريد أن

نسمع ما نعلم، لنطمئن."

لقائله.

عادت بعد نصف ساعة ومعها الطبيب أمجد، دخلت قسم الإصابات حتى وجدت ذلك الطبيب، رحب كلا الطبيبين بالآخر حيث يبدو أن بينهما علاقة قديمة لتقاطع نقاط عملهما معاً، ثم أخبرهم الطبيب أن الشاب قد استيقظ قبل قليل وبإمكانهما رؤيته، طلب أمجد من إيناس الدخول للحديث معه والاطمئنان عليه حتى يستعلم عن حالته من الطبيب، فوافقت وكيف لا توافق وهي التي حين تتورط بأمر فإنها لا تنسحب أو تقلل درجة التورط بل تنغمس بكلها حتى النهاية.

_الحمد لله على سلامتك.

نظر إليها الشاب بعيونٍ واهنة مجيب:

_سلّمكِ الله، أنتِ من أسعفتني؟

_نعم، هل أنت بخير؟ أتحفظ أرقام أحد أقاربك لأتصل به، بالطبع أنهم قلقون عليك؟

_لا، هل بحوزتك مرآة؟ قال الطبيب: هناك تشوه يحتاج تجميلاً، ما الذي حدث لي؟

_ لا تقلق، الأمر بسيط، سيكون كل شيء على مايرام، لا حاجة للمرآة انظر إليك في داخلك أنت هو أنت لم يتغير شيء!، اطمئن.

_بل إن التشوه كان داخلياً أكثر مما هو خارجياً أيتها الآنسة.

_أرجوك أن ترتاح، لا زلتَ متعباً، ثم إن كل الأمور ستكون أفضل مما كانت عليه، سأستدعي الطبيب أمجد لرؤيتك.

*****

في الساعة السادسة مساءً، كانت السيدة ابتسام والسيدة ميساء في المطبخ تعدا الطعام، بينما شفق تقطع الخضار للسلطة وتُدرس ابنة عمها الصغيرة، شفق تقرأ وأمل تردد وراءها، خرجت بدور ابنة عمها ذات السبعة عشرة عاماً تفرقع بأصابعها قائلة:

_تعبت كثيراً، هل أساعد بشيء؟ أنا جائعة كمن لم يأكل منذ عشرة أعوام.

_قريباً يجهز الطعام عزيزتي، جهزي الطاولة، واتصلي بمازن ليُحضر الخبز معه.

_حاضر يا أمي.

بعد ساعتين، أكل الجميع طعامه، واجتمعوا يحتسون الشاي بالنعناع، قال مازن:

_أمل حلوتي هيا العبي قليلاً في غرفة النوم ثم اخلدي للنوم.

نظرت لأمها فأومأت لها بالإيجاب، أطاعت على مضض وأخذت دبها الوردي متجهة للغرفة، فتابع:

_لدي موضوعاً علينا النقاش به.

قاطعه العم سعد وهو والد مازن:

_ وأنا أيضاً لدي ما يهم، ابدأ يا بني.

_لا يا أبتي سأتحدث بعدك، هيا كلنا آذانٌ صاغية.

توجهت الأبصار نحو العم سعد، وضعت بدور كتابها جانباً وعدلت جلستها، لترى ما هذه المواضيع المهمة، وماذا فاتها وهي غارقة بين أكوام الكتب، لكن شفق كانت متوترة لأنها تتوقع الموضوع الذي سيبدأ الآن، شبكت أصابعها وتنفست بعمق، أردف العم سعد

بعد رشفة الشاي:

_هناك خاطبٌ يريد أن يتقدم لبدور، وقد طلب مني موعداً وكلمني اليوم، حاولت إخباره بأنها صغيرة وغير مستعدة، وعليها إكمال دراستها، ولكنه كان مُصراً، فقلت لنفسي لن أكسر بخاطره، لنعطه موعد ونتعرف عليه أكثر.

حملقت بدور بوالداها بخجل غير مصدقة، بينما شفق الخجلى كانت مصدومة تماماً، نظر مازن إليهما وقال ممازحاً:

_تغيرت ألوانكما، ما بكما وكأنه خبر وفاة، أنتما مضحكتان، أبي ألم يخبرك باسمه، أو من أين يعرفنا على الأقل.

_أظن أن اسمه ضياء أو براء شيئاً كهذا، كان المطعم مزدحماً لم أسمعه جيداً، على كل حال سنتعرف عليه عند مجيئه ما رأيك يا أم مازن؟

ردت ميساء:

_لا مشكلة، إن كان شاباً ملتزماً خلوقاً، سنعطيه الموافقة ولكن سنأخر الخطوبة حتى تنتهي هذه السنة الدراسية، فهي مهمة وحاسمة، ثم إن الأمر يعود لبدور يا عزيزي، ما رأيك يا بنتي؟

ردت بدور ببلاهة:

_بماذا يا أمي؟

نكزتها شفق ممازحة:

_بالشاي، هل أعجبك؟

قاطعها مازن ضاحكاً:

_ليست وقت المزاح يا نجولات، أختي غاليتي أ مستعدة للأمر ما رأيك؟.

أرجعت خصلاتها للوراء ببطء، مردفة بجدّيّة:

_دراستي أهم ما لدي حالياً، ولكن لنرى الأمر كما قالت أمي، إما أن تنتقلوا للموضوع الآخر أو أنني سأذهب لمتابعة دراستي.

ردت السيدة ميساء:

_حسناً أعطه موعداً غداً على السابعة مساءً يا أبا مازن.

أومأ لها يردد بعض أدعية التوكل وتيسير ما فيه خير.

ابتلع مازن ريقه، واقترب للأمام يقول وهو يوجه نظراته اتجاه شفق:

ـعزيزتي شفق أريد منك أن تتفهمينا ولا تنفعلي لأن الموضوع يخصك اتفقنا.

لم تفهم قصده لكنها وافقت بقلق وترقب، فأكمل:

ـمؤخراً أصبحنا جميعاً نخاف عليكِ يا شفق، صحتك تهمنا كثيراً، هناك طبيبة جيدة جيداً وقريبة من مكان عملي، عمك قد وافق وكذلك والدتك على اصطحابك معي، لكنني لم آخذ موعداً مع الطبيبة قبل أن آخذ موافقتك.

بانزعاج بارد:

ـلكنني لست مريضة يا مازن!

قال العم بصوت حنون:

ـإنها طبيبة نفسية يا بنيتي، ستساعدك لفهم تلك الحالات الغريبة التي تراودك، نخشى أن تودي بحياتكِ يوماً ما ولا نكون بجانبك، نريدك أن تتعافي من ذلك لأننا نحبك يا بنيتي.

ـولكن يا عمي...

قاطعها:

ـلا تخافي يا بنيتي سيكون كل شيء على ما يرام، تشجعي ولتكن ثقتك بالله كبيرة، لنذهب المرة الأولى، ثم قرري إن أردتِ الإكمال عندها أو لا.

ـحسنا يا عمي، ونعم بالله كلمها يا مازن.

كان الطبيب أمجد يحضّر نفسه لإجراء العملية، ثم تذكر بأن عليه أن يرى شكل المريض قبل الإصابة، وعندما سأل الشاب إن كان يملك صورةً له، أجاب بالنفي وبأن هاتفه ضائع، احتار الطبيب في أمره فاتصل بالطبيبة إيناس وطلب منها صورة له بأي طريقة، فإن ذلك سيساعد لعودة ملامحه الطبيعية كما كانت، فوعدته بذلك وأغلقت الخط تندب حظها فهي حتى لا تعرف ما اسمه!، ظهرت أمامها صورة لذلك المشهور بالصدفة وهي تطالع هاتفها، فأردفت: "وجدتها!، إنه يشبهه تماماً، سيكون ذلك رائعاً"، حفظت الصورة بسرعة وأرسلتها مباشرةً للطبيب مبتسمةً بمكر.

"ما أثقل الغيرة حينما تلتف حول قلبك ولا تملك الحق بالتعبير عنها؛ فتعبر عنها نظراتك، زفراتك، وعصبيتك الغير مبررة"

دانية قصاص

في الساعة الخامسة كان الهدوء يخيّم على المنزل، مازن والعم سعد في غرفة الجلوس بانتظار الضيف، وأم مازن تدرس الصغيرة في الغرفة المجاورة، والفتيات في المطبخ يجهزن الكعك والشاي، طرقات متزنة على الباب جعلت شفق ترتجف وتوقن بأن براء وصل، يا لسوء الفهم، يا ترى ماذا سيحدث؟ فتح مازن الباب واستقبله ببشاشة، ثم أتى للمطبخ يأخذ الشاي، فوجد الفتاتان إحداهما بوجه أصفر والثانية بوجه أحمر نَجِلْ، تناول الصينية مبتسماً وذهب للغرفة، بعد مدة وجيزة قال العم سعد:

_تشرفنا بك يا بني، ماذا تعمل أو تدرس، ومن أين تعرف ابنتنا؟
_أدرس في كلية الحقوق، وأعمل مدرساً للأطفال، أعلمهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، أما بالنسبة لابنتكم فأنا لا أعرفها تماماً لكنني لمحتها عدة مرات في الجامعة، ولفتني أدبها وأخلاقها، فقررت أن أتقدم لها لأتعرف عليها أكثر، وعسى أن يتم النصيب بالخير.
بدت المفاجأة على الحاضرين، أردف مازن ببلاهة ليكذّب ما فهمه:
_لكن بدور ليست في الجامعة يا أستاذ براء!
_أظن أن اسمها شفق من جئت طالباً يدها، وبالفعل هي في الجامعة.
استدرك العم سعد الأمر وتنحنح قائلاً:
_أها، تقصد ابنة أخي، عذراً كان هناك سوء فهم، شفق كابنتي وأعز إن شاء الله، لكنك عندما قلت ابنتي ظننت غير ذلك.
_لا مشكلة عماه.....

وتم اللقاء والتعارف بين العم سعد وبراء بين سؤال وجواب، ومازن يراقب بصمت والدماء تفور في عروقه، ثم وعد العم براء

بالتحدث مع شفق والسؤال عنه أكثر، وسيعطيه جوابه ليحضر أهله إن وافقت لتتم الخطبة، انتهى اللقاء قرابة السادسة والربع، كان موعد شفق مع الطبيبة عند السابعة.

دخلت السيدة ميساء المطبخ ضاحكة مردفة:

_هيا حضرن الغداء يا بنات، يا خيبتك يا بدور يا بنتي.

_همٌّ وانزاح عن صدري يا أمي، مبارك عليكِ يا شفق.

قالتها بدور وضحكت، أطل مازن مردفاً ببرود، يتحاشى النظر في الأعين، خوف أن يقرأ أحدٌ ما في عينيه:

_عندي مشوار ضروري، سأعود عند السابعة كوني جاهزة يا شفق، لا أريد تأخير اتفقنا؟.

شعرت شفق بضيق مازن لكنها ردت ببرود مماثل:

_حاضر، وإن كنت مشغولاً فلا داعي للذهاب اليوم.

_بل هناك داعٍ، ولو اضطررت لإكمال عملي معك عند الطبيبة، إلى اللقاء.

وخرج، أردفت ميساء:

_إنه سيء الطباع عندما يكون منضغطاً من العمل، لا تآخذيه يا حبيبتي.

قالت شفق مناجيةً نفسها: "إنه سيء الطباع عندما يشعر أن زمام أموري ليست في يديه، ولد متسلط، غيور".

تطلعت للمرآة التي في زاوية مكتب الانتظار، عدّلت من حجابها وثبتته، وراحت تفكر في أمر المازن الغريب، إنه لم يتفوه بكلمة طوال الطريق!، نادتها الممرضة بأنه قد حان دورها للدخول، تنفست بعمق ودلفت للداخل بتوجّس، ألقت التحية:

_السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أهلاً شفق.

_وعليكم السلام.

قالتها بصوت خافت متوتر، ثم جلست قبالتها بهدوء تطالع الجدران الزرقاء بلون السماء، والغيوم البيضاء المرتسمة عليها، شعرت براحةٍ تخالجها فجأة فابتسمت وعادت بنظرها للطبيبة التي بادلتها بدورها الابتسام مردفة:

_أنا سماح وأنتِ؟ عرفيني عنكِ بالتفصيل.

_تعرفين اسمي على ما يبدو، أنا شفق، طالبة أدب عربي، عشرون خريفاً بانتظار ذلك الربيع البعيد، أعيش مع بيت عمي أنا وأمي، وحدث ذلك بعد وفاة والدي، هذا كل شيء.

_لا أريد كل شيء كما يبدو للآخرين، أنا أريد الحقيقة يا شفق.

_وما الحقيقة؟ أتظنين بأنني أكذب فيما قلت؟!

_لستِ كاذبة، لكنك سطحية، الحقيقة هي ما نخفيه في صدورنا، ما نتذكره وحدنا فنشعر إما بسعادة تجعل أرواحنا خفيفة، أو بغصة تثقل كاهلنا وتدمع أعيننا، أريد معرفة ما يؤرقك.

إن ما نتجاهله ونواريه عن أنظار الآخرين هو حقيقتنا يا شفق، تكلمي براحتك هيا.

_ما يُبكى لا يُحكى، فاشلةٌ أنا في فن الكلام، لا أعرف كيف أفضفض.

_إن الكبت أكثر ما يؤثر في نفوسنا وصحتنا، ماذا تفعلين عند الغضب أو الحزن؟

_أكتب...

_إذاً، اعتبريني أوراقاً وحدثيني وكأنك تكتبين، شفق من أنتِ؟

_أنا شفق، وقد ارتبطتُ بالتاء المربوطة منذ زمن بعيد، بحيث أنني لست ذلك الجمال الساحر في الأفق، عالٍ حد السحاب، وإنما تلك النظرة الحزينة التي تُطّل من العيون دائماً ما تأكد لي بأنني شفقة، وحده والدي كان يراني بشكل مختلف، رحمه الله.

_وكيف كان يراكِ؟.

_شؤماً بسبب بعض الأمور التي حدثت بعد ولادتي، تعامل معي على ذلك الأساس بأنني شؤم، ما جعل الجميع يشفق عليّ ويربط تلك التاء بذاك الجمال فيذبل ويشفق على نفسه قبل أن يشفق الجميع عليه، بات الجميع يحاول التحكم بي بحجة أن عليهم حمايتي.

_ما موقف والدتك، ألم تستطع أن تغير شيئاً من ذلك، أو على الأقل أن تزرع فيكِ أملاً وأفكاراً جميلة بدل تلك في طفولتك؟

_لم تفعل شيئاً، كان حزنها وهمها يكفيها ويثنيها عن أي تدخل، خوفاً من النتائج غير المحمودة، كانت تحبني كثيراً، ولكنها حملتني فوق طاقتي، علقت عليّ آمالاً كبيرة دون أن تعلمني كيف أحققها، ودون أن تدعمني، لم يكن بإمكاني تحقيق أي شيء بتلك الحالة رغم كل محاولاتي، كنت حينها أحتاج أن أُعطى لأُعطي، لكنني كنت مجبرة على إرضاء الجميع، وعندما فشلت رأيت نظرة الخيبة في

عينيها، واستوطنني الشعور بالعجز، أنا لست ذات أهمية يا طبيبة لا تتعبي نفسك معي.

قالت كلماتها بكل مرارة، وابتعلت ريقها مانعة دموعها من الانهمار.

أردفت سماح:

_شفق اسمعيني، ليس بإمكان أي أحد أن يشعرك بأهميتك مالم تشعري أنتِ بذلك من تلقاء نفسك، سأخبرك بأنك مهمة وجميلة كالشفق الأحمر المجول في أعالي السماء، ولكن لن تُؤثر كلماتي بك، أنا سأساعدك لتقوية ذاتك وحبها، أول خطوة لبدأ صفحة جديدة هي أن ندرك ما في الصفحة القديمة، وكيف يجب التعامل معه، والتعلم مما فيه، ثم نحتاج القوة لنطويها دون عودة، ونبدأ بأخرى أفضل منها.

_هل أستطيع؟!

بمنتهى العجز سألت، فأجابت الطبيبة سماح:

_نعم تستطيعين إن شاء الله، والآن نكتفي لهذا اليوم، أريد منك وعداً بأنك ستأتين ثانية إلى هنا يا شفق.

_وعد.

بعد أن خرجت شفق كان مازن بانتظارها واصطحبها للسيارة، لاحظ بريق الدموع الذي يستوطن عيناها، ويخاف مغادرتهما متمسكاً بأجفانها بكل ما أوتي من قوة، رق قلبه لها، سألها بصوت حنون:

_كيف كانت الجلسة؟

_جيدة، لا تشغل بالك بي.

_أردت الاطمئنان عليكِ، لدي سؤالين اذا سمحتِ.

سألها وبدأ بالقيادة، أومأت له ليتفضل، وفتحت نافذة السيارة.

_من براء؟

رفعت حاجبيها قائلة بعصبية:

_براء هو براء، أتحتاج جواباً فلسفياً أيضاً كالطبيبة؟

_أقصد، هل تعرفينه قبل الآن؟

_أخبرتك مراراً ألا تشغل بالك بي!، مازن دعني أكون حرّة، لماذا تحب معرفة كل الأمور؟ نعم أعرفه ولكن فقط عن بعد، كاسمه وشكله فحسب.

_إذاً حينما تحدث أبي بالموضوع كنتِ تعلمين أنك المقصودة، وأن هناك سوء فهم، ولم تحدثي بذلك؟.

_كفى، أنا متعبة، قف ودعني أكمل مشياً.

انتبه لصوتها الواهن المنزعج، فخفف السرعة واستدار إليها مردفاً:

_آسف، كنت أطمئن عليكِ فحسب.

_لا أريد أن يطمئن علي أحد، دعوني وشأني، من أوكلكم الوصاية علي جميعاً؟ ألأن أبي متوفي أصبح على الجميع أن يتقمص دوره!.

_أهدأي لم أكن أقصد يا شفق.

كان يريد الاطمئنان على قلبه لا عليها فحسب، كانت غيرته دافعه الأول والأخير لتلك الأسئلة، وليس لأجل التحكم بها كما تظن هي.

"لا زلت أتمنى حدوث تلك الأمنية، رغبة واحدة وشعور واحد فقط وددت لو أنَّني أعيشه، أتخيَّل حجم الدَّهشة الحقيقيَّة التي ستداهمني عندما تحقق!"

_لقائله

كانت تجوب أروقة المستشفى ذهاباً وإياباً بمريولها الأبيض وكذلك حجابها، تحمل قهوتها في يد، وهاتفها في اليد الأخرى وتعيد الاتصال مرة تلو المرة، إلى أن جاءها الرد أخيراً.

_صباح الخير، صباح الإزعاج، يا ظالمة تسعةُ اتصالات من السابعة صباحاً، ماذا أفعل بكِ؟

ضحكت إيناس مجيبة:

_صباح النور والسرور، الأمر يستحق أكثر من هذا بكثير، خمني من عندنا في المستشفى؟

_من؟

_قلتُ نحمني يا كسولة.

_لا يهم، أريد النوم أرجوكِ.

_لن تنامي بعد الآن، الرسام المشهور أحمد الخطّاب هنا، إن لم تأتي الآن لن ترينه أبداً، ألا تحلمين برؤيته منذ زمن، إنها فرصة ذهبية يا داليا.

_إيناس هذا واقع أم أنني لا أزال نائمة؟! تردين إيقاظي لذلك تكذبين، دعيني أنام.

_غبية.

هتفت بها بعصبية وأغلقت الخط، رشفت من قهوتها مبتسمة بمكر، تعلم مدى إعجاب ابنة خالتها بذلك المشهور وحلمها بلقائه، والتحدث إليه، هي واثقة بأنها ستكون هنا بعد دقائق فحسب، لكنها لم تحسب حساب انكشاف خدعتها، ماذا لو اكتشفت داليا بأنه ليس هو وإنما شخص غريب مصاب، خضع لعملية تجميل وكانت الصورة الوحيدة التي بحوزتها صورة أحمد المشهور الذي يشبه هذا الشاب، فقدمتها للطبيب ليعيد بعض ملامحه التي أفسدها الحادث الذي لا

يزال مجهولاً أيضاً؟، هكذا هي دائماً تندفع غير آبهة بالنتائج وكذلك ابنة خالتها داليا بالضبط!.

بعد قليل كانت داليا عندها تشتعل حماساً لترى إن كان الأمر حقاً أم خدعة من إيناس، صرخت:

_أين هو؟، أود رؤيته.

_يا مجنونة اهدئي، هنا مستشفى ليس شارعاً، تعالي لكنه لا يزال نائماً، حافظي على هدوءك رجاءً.

ثم اصطحبتها لغرفة علي، دخلتا الغرفة معاً، كان يغط في نومه، يعلوه غطاءٌ أبيض ككل شيءٍ في هذه الغرفة، نظرت داليا إلى الساعة الجدارية، واقتربت منه بخطى حثيثة، رفعت حاجبيها بدهشة قائلة:

_حقاً هو! ما به؟ أود التحدث إليه يا إيناس.

_انتظري هنا، سأُكلم الطبيب وأعود، لا تقلقي هو على ما يُرام.

_حسناً وأنا سأجلب بعض الأزهار لحين عودتك.

خرجتا من الغرفة بهدوء، ذهبت إيناس إلى الطبيب، بينما اتجهت داليا لحديقة المستشفى الصغيرة، تجمع منها بعض الأزهار، ثم عادت وضعت الزهور في كأس الماء على الطاولة الصغيرة، وأزاحت

الستائر عن النافذة قليلاً لتدلف أشعة الشمس ببعض دفئها، سألها أحدهم فجأة:

_أنتِ أحد أقاربه يا آنسة؟

ألتفتت بارتباك فوجدت طبيباً فاره الطول، كستنائي الشعر والعينين، يرتدي مريوله الأبيض ويبادرها بابتسامة خفيفة، فبادلته إياها مردفة:

_تقريباً، طمأني عنه أيها الطبيب.

_إنه بخير الآن، هل تعرفين سبب الإصابة التي أدت لتشوهه؟

ارتسمت الصدمة على محياها ونظرت إليه ببلاهة، فقال:

_يبدو أنك لا تعرفين بالحادث!، تأمليه قليلاً هل هو الآن يشبه ما كان عليه؟ لم أجد معه بطاقة الهوية الشخصية ولا حتى هاتفاً محمولاً، لكنه أخبرني أن اسمه علي، ولا يريد أن يقلق أهله، حاولي إخبار عائلته بطريقة مناسبة لو سمحتِ.

استمعت إليه بتركيز شديد بينما لم تفهم شيئاً من كلامه، أردفت بابتسامة مصطنعة:

_الحمد لله على سلامته، شكراً لك استأذن الآن علي الذهاب.

_على الرحب، رافقتك السلامة.

راحت تمشي مصدومة برواق المستشفى تبحث عن عيادة إيناس، لكن إيناس ظهرت فجأة في طريقها وصاحت:

_كنت ابحث عنك، أين كنتِ؟

كانت داليا تحت تأثير الصدمة، سألتها ببطء:

_إيناس من هذا؟

_من هو؟ لا أحد هنا، ثم ما بكِ كالذي سُكبت فوقه مياه باردة، وتتحدثين كالرجل الآلي؟!

صاحت داليا:

_لا تتغابي لطفاً، أكُنتِ تخدعينني؟ ظهرتُ كالحمقاء أمام الطبيب، جئتِ بي إلى هنا قبل صياح الديك لماذا؟ أجيبي.

_أهدئي هناك مرضى نائمون، تعالي لنتحدث في عيادتي.

_تعلمين أن لقاؤه هو أمنيتي المنتظرة منذ سنين، ثم تسخرين مني! أنا حساسة بهذا الشأن، أخبريني من هذا وما حقيقته؟

_سأحدثك ولكن ليس هنا، هيا بنا.

أمسكت بيدها وجرتها معها، استوقفهما صوت الطبيب ينادي إيناس، فاستدارت، فبادرها:

_لقد استيقظ علي الآن، هل تودين رؤيته؟ لطفاً حاولي إخباره عن تكلفة العملية ليرى كيف سيُسددها.

صمت قليلاً ثم تابع وهو ينظر لداليا بطرف عينه:
_اعتقد أن الآنسة من أحد معارفه لكنها لم تتجاوب معي كما يجب، لدي الكثير من الاستفسارات، على كل حال تفضلا.

*****

_وداعاً يا أمي، هل تحتاجين شيئاً ما أحضره أثناء عودتي؟
قالتها شفق قبل مغادرتها المنزل، فردت أمها بالدعاء لها، واستوقفها مازن قائلاً:
_انتظري قد انتهيت سأوصلك في طريقي للعمل.
وأقبل مستعجلاً بعد أن وضع حمالة المفاتيح في جيبه ورشف آخر ما تبقى من قهوته، نادته والدته قائلة:
_مازن عزيزي لا تنسَ إحضار الحلوى عند عودتك، ستأتي والدة براء اليوم لزيارتنا.
أجاب بتأفف:

_أليس من المفترض أن يحضروها هم يا أمي؟!

_أعرفك مُوجّبٌ يا ولد ما هذا الكلام؟ صحيح بدور سينتهي دوامها عند الثالثة، مُرَّ عليها من فضلك.

_تأمرين أماه، هيا شفق تفضلي أمامي.

فتح لها باب السيارة الخلفي، وصعد من الأمام وشرع في القيادة قائلاً:

_صباح الخير، متى جلستنا مع الطبيبة؟

انتهت من فتح النافذة وأخذت نفساً عميقاً ثم أجابت:

_صباح الخيرات مازن، غداً صباحاً إن شاء الله، والحمد لله لا يوجد وقتها محاضرات، وأنت حدثني بأخبارك.

_حقاً تودين معرفة ذلك؟

_بالطبع، منذ زمن لم تحدثني بأي شيء كما كنا صغاراً، أليس لديك طُرفة مُضحكة؟

_حسناً، الأمور جيدة جداً، لا تشغلي بالك بي، صمت ثم تابع بأسلوبها:

_لستُ مُهرجاً، ألأنني حكيت لك طرفتان أو ثلاث استوطيتي حيطي!.

ضحكت الأخيرة وأدركت أنه يقلدها أردفت بابتسامة:

_ظريفٌ في كل شيء، إلا في تقليدي.

ابتسم لها، شعر بنخزة في قلبه، سألها:

_هل ستوافقين؟

_سأوافق على شراءك الشكولاتة لي، لا مشكلة.

_دعي المزاح جانباً، ولا تسيئين فهمي.

_ماذا تقصد؟

أوقف السيارة والتفت إليها مردفاً:

_شفق تفهمين ما أعنيه، وصلنا الجامعة، وكنتُ أود معرفة ما توصلتما إليه أنتِ ووالدي البارحة.

_مزاجي رائق هذا الصباح، رغم أني لا أحب هذه الأسئلة ولكن سأجيبك، أنا بصراحة لم أقرر، أخبرته أنني سأفكر وأتعرف عليه بشكل أوضح أولاً، ما رأيك أنت يا مازن؟.

كاد ينفجر لكنه حليم، يسرّ الكثير في نفسه ولا يبدي به، تسأله عن رأيه الآن، وفي ماذا؟ في خطوبتها!، وهو الذي لو أستطاع محو ذلك الذي يُدعى براء لفعل، يطلب الرحمة من الله لقلبه، يبتسم مجيباً:

_لا داعي لمعرفة رأيي، هذا أمر يخصّكِ، استخيري وسيُيسر الله لك الخير.

ثم استدار منصرفاً، ودلفت هي لجامعتها.

شدت على زند إيناس بقوة قائلة:

_أريد فهم الأمور أولاً، دعينا لا نراه الآن.

_ماذا؟ لقد وصلنا لغرفته لا تراجع، إن كنتِ تُصرين على ذلك سأدخل أنا واذهبي لانتظاري في عيادتي، لن أتأخر.

قالتها ودلفت للداخل دون استماعٍ لرد داليا، زفرت الأخرى بقوة ومضت لعيادة إيناس، ثم توقفت فجأة في منتصف الطريق، وهي تقول في نفسها: "طالما يشبهه فما المشكلة، سأعود وأراه مرة أخرى، وسأحاول فهم ما يجري".

سألته إيناس:

_كيف حالك؟ أفضل؟ هل لديك طريقة نخبر بها عائلتك يا أستاذ علي؟

رد بصوت واهن:

_بخير، لا أريد إخبار أحد، لا تسألوني عن عائلتي لطفاً، متى أستطيع مغادرة المستشفى؟

_لا زلتَ بحاجة للراحة، يومين أو ثلاث على ما أظن ويمكنك ذلك، آسفة لهذا السؤال ولكن كيف ستُسدد مبلغ العملية إن لم تخبرهم.

_سأحضر المبلغ بنفسي حال سماحهم لي بالخروج، وسأتعهد بعودتي.

_حسناً، هل رأيتَ نفسك في المرآة؟

طرقات على الباب جعلتهما ينظران إليه معاً، ويأذنا بالدخول، بعباءة سوداء طويلة، وشالٍ أزرق فاتح اللون يحيط بوجهها، خطت بضع خطوات للداخل مرتبكة، ورفعت عينيها الواسعتين اللتين سرقتا من دجى الليل لونهما، نظرت لإيناس قائلة:

_أخبروني أنكِ هنا حضرة الطبيبة، أحتاجك لأمرٍ هام.

ثم نظرت لعلي الذي يطالعها باستغراب بعينيه الزرقاوان لطريقة دخولها الغريبة، فزاد ذلك من ارتباكها، ضحكت إيناس في سرها وحاولت كتمان ذلك مردفة:

_تأخرتُ عليكِ لا تآخذيني، استأذن أستاذ علي، اعلم أنني قريبة من هنا، عيادتي في نفس المستشفى ولكن في الطابق الأخير،
إن احتجت شيئاً أخبرهم فقط أنك تريد الطبيبة إيناس وسآتي لمساعدتك متى ما أردت.

_ممتن لكِ، أود شرب كأس من الحليب لكني لا أرى ممرضة هنا.

_حسناً، سأخبرهم بذلك، وسأطلب لك مرآة أيضاً، إلى اللقاء.

قالت داليا قبل خروجها:

_أعتذر لما سببته من إزعاج، عافاك الله.

وما إن خرجتا حتى ضربتها إيناس على كفتها وراحت تضحك ساخرة منها، واخذتها لتشرح لها الأمر، عند وصولهما أطلت ليان من داخل العيادة قائلة بضجر:

_الألم يفتك بي، أنسيتِ موعدنا عند التاسعة أيتها الطبيبة؟ منذ نصف ساعة وأنا هنا انتظر.

وضعت إيناس يدها على رأسها بحركة درامية محترفة، وكأنها نسيت الأمر بالفعل، وتأسفت لما حدث، ثم أخذتها للداخل، قائلة لداليا:

_اذهبي واشتري لنا شيئاً نأكله، وبعض الحليب اعطه للممرضة لتوصله لعلي، وسأكون قد انتهيت.

قالت داليا في نفسها: "تباً للاستغلال! وكأنني متفرغة بلا دوام ولا تدريب عملي".

"يا ليلُ هَبني مِنْ سُكونِك ساعةً
فَلَقدْ مَلَلتُ ضَجيجَ قلبٍ مُثْقَلٍ"

_لقائله

ها قد أسدل الليل عباءته السوداء الحالكة، لا شيء ينير السماء سوى حفنة من النجوم المتفرقات، وبعض الدعوات الصادقات، كانت شفق تتأمل السماء من نافذتها وتسبح في أرجاءها الرحبة بينما هي في مكانها، يغشاها الشعور بالطمأنينة والسكينة، أما بدور كانت تدرس بجد وتذرف دموعاً حارة، وتدعو الله بأن يُهون عليها، وأن يُوفقها للمعدل الذي تمناه، وتطلب منه العون والقوة، فما عادت تحتمل هذه الضغوط، بينما الأخير الذي لا يزال ساهراً، كان واجماً حزيناً يناجي الليل الذي يزيد من وطأة شعوره ألماً، قائلاً: "أيا

ليل مكانك الأفق البعيد، فلماذا سكنت قلبي؟! لك في السماء نجوماً تؤنس وحشتك، ومالك في قلبي قبسٌ من نور فلماذا اخترته؟،

غادره أرجوك، أتوق للصباح ولدفء شمسه، أود من النور أن يغمرني، يا رب أنر بصري وبصيرتي، وقلبي ووجهتي، وأبعد ظلام التفكير عني".

هكذا هو الليل دائماً، يستكين به البعض ويطمئن، ويتألم به البعض ويئن، دفاتر الذكريات تُفتح، وجيوش الحنين تُقبل، بقدر ما هو هادئ مليء بالضجيج، حيث تصمت الأصوات الخارجية، لتسمع الأصوات الداخلية وتبدأ بالثرثرة.

داليا في مكان آخر كانت نائمة تحلم بواقعها الوردي الذي يسكن خيالها على الدوام، بينما إيناس كانت تبحث عن شيءٍ لتأكله ليتما تنتهي الإعلانات وتعود لإكمال البرنامج الذي تتابعه، غير آبهة لا بليلٍ ولا بنهار، أما علي كان يتقلب في سرير المستشفى ويسبح الله كثيراً ليزيح عنه الضيق الذي يسكن فؤاده.

*****

صعدت الشمس مدارج السماء معلنةً صباحاً جديداً، وأخذت تنشر أشعتها الذهبية في كل مكان، انطلقت شفق مع مازن لعيادة الطبيبة، ولم يتبادلا أي كلمة حتى سألها مازن:

_ما كل هذا الشرود؟ أنتِ بخير؟

_ربما بخير، رغم جمال هذا الصباح، لكن خاطري مكدّر بلا سبب، وأنت ما بك؟

_بخير على ما يرام، خرجنا مبكراً أتأكلين شيئاً؟

_لا شهية لي، لكني سأقبل بلوح شوكولا مساءً.

_لا أدري ماذا تفعلين بكل هذه الشوكولا!

_ماذا تفعل عندما تحزن يا مازن؟

_الأسطورة لا تحزن يا حورية في بحر الأحزان.

_لولا أنك تقود السيارة لرميتك بالكتاب، جاوبني لأخبرك أين تذهب تلك الشوكولا.

_أحياناً أتمشى، أركض، أقود على غير وجهة، ألزم التسبيح، ثم أعود في آخر اليوم للمنزل حينما أرتاح قليلاً.

_أرأيت لديك نشاطات تُهوّن عليك ثقل الشعور، تُخرجك قليلاً من التفكير فيما يُحزنك، أما نحن الفتيات فلا يُسمح لنا بالخروج وحدنا

للمشي ولا للركض، ممنوع حتى أن يظهر الحزن على ملامحنا، فنعتزل قليلاً ونغرق في نوبة بكاء نخرج فيها ما يُثقل كاهلنا، فيجف حلقنا وتفرغ معدتنا، فنمسح دموعنا بعد أن نستريح قليلاً، ونأخذ دواء للصداع الذي يجيئ بعد حفلة البكاء، نصلي ركعتين ثم نتلذذ بلوح شوكولا ونفتح صفحة جديدة، ونخرج للعالم بقوة من جديد.

_كل هذا؟!، ما دامت بهذه الأهمية بالنسبة لك، فسأجلبها على الدوام، بالمناسبة يا شفق أنا لم أركِ تبكين من قبل!.

_لكل منا طريقته في البكاء يا مازن، ها قد وصلنا أشكرك.

_واجبي، متى تنتهي لأوصلكِ للجامعة؟

_لا عليك ليان قريبة من هنا، لديها موعد عند طبيب الأسنان سأُكلمها ونترافق معاً لهناك.

ودعته ودخلت البناء، وصلت للعيادة، راحت تمشى قليلاً في غرفة الانتظار، نظرت لنفسها في مرآة الحائط، شردت برهة تأملت عيناها اللتان تشبهان حبات البُن في لونها، استحضرت صوت السيدة عبير- والدة براء- عندما قالت: "أليس لديك فتاة بعيون ملونة؟"، "بدور أجمل، ماذا لو عدلنا عن خطبة شفق وأخذنا بدور؟"، "تبدين هادئة أكثر مما يجب!".

ـصباح الخير، أراك مبكرة، يا أهلاً وسهلاً.

قطعت الطبيبة سماح صوت أفكارها بتلك الكلمات، وأخبرتها أن تتبعها للداخل، ثم سألتها وهي تضع حقيبتها على الطاولة وتفتح الستائر:

ـ كنتِ شاردة، هيا أفصحي عما بجعبتك يا حلوة.

ـلا شيء، بماذا سنبدأ اليوم؟

ـاسمعي يا شفق، طبيعيٌّ جداً أن نحزن، أن نُخطأ، أن نواجه الكثير من الصعوبات، هذا جزء لا يتجزأ من الحياة، لكن هناك البعض يعانون من الهشاشة النفسية فلا يتقبلون ذلك، وبما أنني طبيبتك فيجب عليك إخباري بما يزعجك، كي أعلم أيها طبيعي وأيها يحتاج علاج ووعي به، واعلمي أن ما نتحدثه هنا يدفن هنا، لذلك لا داعي للكتمان، تنفسي بعمق وخذي راحتك وابدأي.

ـهل من الطبيعي أن نجرح من المقارنة؟ بالأمس كانت لدينا سيدة جاءت لخطبتي ثم تفاجأت بأنني الفتاة التي حدثها عنها ابنها، وليست ابنة عمي، وكانت الجلسة عبارة عن مقارنة فيما بيننا، وهذا أزعجني وذاته ما كنت شاردة لأجله قرب المرآة.

_بلى طبيعي جداً، نحن بشر ويؤثر فينا ذلك، ولكن الغير طبيعي هو أن يؤثر ذلك فينا لدرجة أن يُشغل تفكيرنا وينتزع ثقتنا بأنفسنا، لكل منا شخصيته، واختلافه، وتميزه، عليك أن تضعي حدود لما يُزعجك ولا تسمحي لأحد بأن يتخطاها، إن كان ذلك يُزعجك عليكِ أن توضحي ذلك بطريقة ما.

_لكن علي احترامها، وكثيراً من الأحيان أصمت أدباً، رغم أن ما يقال قد يجرحني.

_ولكن ذلك مهم أنت لن تتحملي هذا دائماً، ما دمت رضيت من البداية بأن يُستهان بك، فسيحدث ذلك مراراً وتكراراً، لست مطالبة بأن تكوني ملاكاً، صحتك ليست بهينة لتفقديها وأنت تحاولين الصبر على الدوام.

وراحت تحدثها وتشرح لها، ويتحاوران معاً.

*****

_اتصلت بك عدة مرات، لماذا لا تجيبين يا إيناس؟

_ ألقي التحية أولاً، آسفة أنا متعبة أظنها وعكة صحية بسبب تبدل الفصول.

ـلا تزالين نائمة! لا تخبريني أنك لن تذهبي للمستشفى، ماذا عن الكائن المسكين الجميل الذي يرقد وحيداً؟!

ـآه، أهذهِ مكانتي عندك؟ لن أذهب، حرارتي مرتفعة، وإن كان يشغلك أمره فاذهبي إليه ودعيني أنام.

(قاطع صوت إيناس، صوت أنثوي خافت يسأل عن مدة تأثير المخدر بعد انتهاء عملية الخلع).

صاحت داليا:

ـ كاذبة، مخادعة، أنتِ في المستشفى وتريدين اللعب بأعصابي

أجابت إيناس المريضة وهي تتمالك ضحكتها ثم عادت لداليا واسترسلت بالضحك بينما الأخرى توبخها.

ـحقاً مريضة، ولكن لدي موعد عملية فأتيت، اسمعي تحدثت البارحة إليه، لديه قصة مأساوية على ما يبدو، حديثه كئيب، نصحته بالذهاب للطبيبة النفسية وأعطيته بطاقة عيادتكم، ربما يزوركم قريباً، لأن موعد خروجه اقترب.

ـحمداً لله هذا يعني أنه تحسن، أرحتِ قلبي، اذهبي إذن لدي الكثير من الدراسة الآن.

فصلت داليا الخط، فوضعت إيناس هاتفها جانباً وعادت لمريضتها تُلقي عليها الإرشادات.

"كل ما أرغبُ بهِ
في وقتٍ عصيبٍ كهذا
أن تدومَ الشعلةُ الضئيلة في داخلي
لوقتٍ أطول،
أن تصمدُ أمام طوفان الحياة
وأن يحالفهَا الحظَ مثل كل مرة
وتنجو!"

زكية عاطف

بعد يومين كانت عائلة أبو مازن تتحدث عن ترتيبات اليوم لأجل خطوبة شفق، أم مازن والسيدة ابتسام كانتا تحتسيان القهوة وتعجنا البسكويت المحلى والمملح، وبدور واقفة تتصل بمعلمتها لتأكيد إلغاء حصة اليوم، بينما شفق تُسرح شعر أمل الصغيرة

وتجدّله على شكل ظفيرتين، وأبو مازن يتفق مع مازن على بعض الأعمال وبعض المشتريات التي عليهم إحضارها، أردفت بدور:

_والدي نحتاج للتسوق، فهل تسمح لنا بالذهاب وحدنا أنا وشفق؟

_لا يا حبيبتي أخاف عليكما، سيصحبكما مازن، هل عندك متسع من الوقت ظُهر هذا اليوم يا بني؟

كان يبدو عليه التعب، مع أنه لم يبذل مجهوداً ولكن التعب كان داخلياً، تظاهر بالمرح قائلاً:

_بالطبع، مازن سوبر مان يستطيع فعل أي شيء لعينيك يا والدي وكل شيء، لكن علي الانصراف الآن لأنهي أعمالي، أنظري إلي أنت وهي، الدفع على حسابكما مهمتي التوصيل والمرافقة.

_أنت ادفع ونحن نرافقك ونحميك لا تقلق.

ردت بدور، فضحكت هي وشفق، ردّ بجدية:

_حسناً، كونا جاهزتين قرابة الثانية عشرة، هيا أمل قبل أن نتأخر شارف باص الروضة على الوصول.

قبلت أمل شفق كردٍّ للجميل على تسريح شعرها وانطلقت لتمسك يد أخيها ويذهبا.

قالت شفق مخاطبة بدور:

_اتصلي بـ ليان من فضلك وأخبريها، تود الذهاب معنا، وتعالي معي لنبدأ بالتنظيف، سأمسح الغبار حتى تأتين.

وقف علي يحبس دمعاته مطرقاً برأسه للأسفل، رن جرس الباب، كانت تلك المرة الأولى التي سيزور فيها تلك الخالة الطيبة التي يحبها ويمدح بها كل من في هذه القرية، كان بيتها صغير، تحيط به أشجار الصنوبر من كل جانب وكأنها تحتضنه، ولديها قط صغير ينام قرب البيت، أطلت من وراء الباب امرأة ستينية، ترتدي ثوباً زيتياً فضفاض مع حجاب أبيض تدلى من أطرافه بعض الشعيرات الليلة وأخرى مقمرة، عيناها عسليتان خطَّ الزمن آثار العمر حولهما، وتجعيدات يديها تحكي عن حياة ولت كان ملؤها العمل والعطاء، تقطّب حاجباها سائلة إياه:
_أهلاً بك، أنت عليٌّ صحيح؟ مالك يا ولدي؟
ثم تقدمت تحمل كرسيان صغيران لجانب الشجرة، فساعدها ثم جلس قبالتها مجيباً:
_بلى أنا علي.

_عرفتك من لون عينيك التي تشبه عينا والدتك كثيراً، نفس الزرقة الصافية.

_لقد سافرت يا خالة، أشتاق إليها كشوق الأرض للغيث، روحي تحتاج فيض عطاءها.

صمت ثم تابع:

_لقد حدثتني كثيراً قبل ذهابها عن مساعدتك لها ولكل من يطرق بابك محتاجاً مساعدة مادية أو معنوية، أشعر بأن العالم فارغٌ بدونها!.

عم الصمت برهة، مرت نسمة هواء جعلت الأغصان تتمايل مصدرة صوت حفيفها اللطيف، مسح علي الدموع التي فرت من عينيه، قالت السيدة:

_الحياة لا تتوقف يا بني، صحيح أن غياب من نحب يجعل العالم باهت، ولكن علينا المتابعة، هوّن عليك فهي ستعود بالتأكيد بعد مدة قصيرة.

_لا شغف لدي لمتابعة أي شيء، المشكلة أن والداي لم يسمحا لي يوماً بمغادرة مزرعتنا، ولم تكن لدي الكثير من الصداقات، بعد أن علم والداي بأنهما لا يستطيعا إنجاب طفل آخر، منعاني من الكثير من الأشياء خوفاً علي، فأصبحا هما الاثنان كل الحياة بالنسبة لي،

والآن فقدتهما معاً، أشعر بضيق شديد يثقل صدري، لم أعتد على مواجهة العالم بمفردي، وما يؤلم أكثر بأنني شاب على هذه الحال.
بدأت السيدة بمواساته ونصحه واحتوائه وكأنه ولدها، فهي منذ فقدت ابنها بدأت تعوض غيابه بتقديم الحب والأمان لكل من يفقدهما، كانت تستمد معنى وجودها من تلك البسمة التي ترتسم على الوجوه الحزينة إثر كلماتها، كان بيتها بمثابة صيدلية تبيع فيها الأمل واللطف والحب، وتنزع أشواك الحزن واليأس، تشارك فيه الفرحة لتتضاعف، والألم ليخف.

*****

_السلام عليكم أيتها الطبيبة.
_وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلاً ليان تفضلي.
_هل أستطيع تأجيل الموعد من فضلك، لدي حفلٌ اليوم.
_حسناً يمكن ذلك، سنأجلها للاثنين ما رأيك؟
_جيد جداً، استأذنك الآن.

خرجت من العيادة ودخلت داليا تعلو وجهها ابتسامة مشرقة ألقت التحية وسألت عن الأحوال واتفقتا بأنهما ستذهبان معاً إلى البحر عند الغروب، هكذا هما كل يوم خميس تتفقان على مشوار يقضيانه

معاً ويتخلصا من ضغط الأسبوع، لكن اليوم سترافقهما حنين ابنة خالتهما المتزوجة.

جلسن الثلاثة في المقعد الخلفي للسيارة، عاد مازن من السوبر ماركت، رفع حاجباه باستغراب لرؤيتهن هكذا ثم غض طرفه وصعد السيارة قائلاً:

_بدور تعالي واجلسي بجانبي.

_لا أريد، هكذا تفوتني الكثير من الأحاديث.

_لن ترتحن يا أختي، شفق أ تأتين؟

_منذ متى وكنت أصعد لجانبك يا مازن.

قالتها بعصبية، صاحت ليان:

_ابقيا هنا وسأجلس أنا في الأمام.

ثم تركتهما ونزلت لتركب بجانب مازن، تفاجئ مازن كان يظنها تمزح، تبادلت كل من الاثنتان النظرات وضحكتا.

قالت ليان:

_غداً ستتزوج شفق وتصبح مغرورة ولن نكلمها إلا بواسطة!، صحيح كيف وافقت هكذا؟ كنت أراكِ مترددة يا صديقتي.

شعرت شفق بالحرج فهي لا تتكلم بهذه الأمور أمام مازن ومع أنه ابن عمها، فكيف تتكلم ليان بهذه الراحة أمام رجل غريب عنها.

أجابت:

_لقد سأل عمي عنه وتحدثت معه مرتين فحسب وتبين له أنه شاب جيد وخلوق، غير أنني استخرت قبل كل شيء وعسى أن ييسر الله لنا كل خير.

تابعت بدور:

_رغم أن والدته لا تحتمل بالمرة ولكن ليس لديه غيرها في عائلته.

_ما لها والدته؟

سألت ليان بفضول فأجابت بدور:

_ألم تخبرك شفق كيف تسببت بجرحها المرة السابقة بكلامها غير الموزون؟

قاطعتها شفق:

_ كفى نغتابها الآن، سامحها الله.

_ولماذا أنا لا أعلم بكل هذا؟

سأل مازن بوجوم، ردت شفق بعصبية حازمة:

ـ لا شأن لأحدٍ في هذا سواي، لنغلق الموضوع، ما مشاريعكم اليوم؟

ألقى مازن نظرة سريعة على شفق وتنهد ثم تابع القيادة بصمت، هكذا نحن أحياناً لا نستطيع أن نقسو سوى على من نثق بمكانتنا عنده، من نشعر بأن قسوتنا لن تغيره، متناسين بأنها قد لا تغيره لكنها تجرحه، ونفعل ذلك بلا وعيٍ منا، إن شفق لا تزال تشعر بالقلق حيال ما سيحدث اليوم، ليست واثقة من قرارها، وربما اتخذته فقط لتُرضي والدتها التي كانت سعيدة بذلك، لأنها تشعر بأنها تُثقل على بيت عمها بمسؤوليتها، تظن بأنها قد ترتاح من كل ذلك إن وافقت على هذه الخطوبة ولذلك وافقت، لأنها متعبة وتبحث عن الراحة فحسب.

"من الجيد أن تبقى دون علم بما يحدث وبما يقال،
أحيانًا المعرفة حُزن."

_لقائله.

في المساء كان كل شيءٍ مرتباً ومنظماً، ومُزيناً بلمسة ساحرة، تقف شفق في الغرفة أمام مرآتها بفستانها الواسع ذا اللون البطيخي الفاتح، المُرصع ببعض اللآلئ التي أضافت له رونقاً جميلاً وناعماً، ينسدل شعرها الكستنائي المجعد الكثيف لمنتصف ظهرها، لطالما شعرت بأنه لا يناسبها ولا حتى يشبهها، فالشعر المجعد غالباً يدل على شخصية مرحة، فوضوية، صاحبة كثيرة الكلمات والضحكات، أما هي فهادئة وخجولة، أزاحت بعض الخصلات للوراء، وأحضرت الشال ذا اللون السُكّري وبدأت ترتديه.

حضرت ليان، وبعدها بقليل حضرت السيدة عبير وابنها، تم استقبالهم بترحاب وتبادل الابتسامات الدافئة، وحضر القليل من

الأقارب، كانت الأجواء مبهجة، تقدمت السيدة عبير اتجاه شفق وقبلتها وناولتها باقة من الجوري الأحمر الطبيعي، قائلة بنبرة بدت لطيفة لشفق:

_هذه من براء، لقد اختارها لكِ بعناية.

توردت وجنتاها، وابتسمت عيناها وشفتاها متمتمة بعبارات الشكر بحياء، أردفت زوجة عمها:

_كبرت زهرتنا وأصبحت تتلقى الأزهار، أزهر الله قلبك بالسعادة والرضا يا شفق.

تألق وجهها ببسمة خجولة وضاءة، وذهبت لتضع الأزهار في الماء، ما إن رأتها ليان وبدور حتى بدأتا تمازحانها:

_جاءت لتنقع الأزهار وتشرب ماءها، لأنها غير مفيدة.

_كان عليه أن يجلب باقة شوكولا، أو شيء ما يؤكل.

_كفاكما، أنا راضية هكذا.

وضعتها في إناء مليء بالماء، وقبل أن تدخل الغرفة سمعت السيدة عبير تقول:

_لا تآخذاني ولكنني لم أكن أرغب حقاً بإتمام هذه الخطوبة، ولكن براء مُصرّ على ذلك، أصدقوني القول هل شفق على علاقة سابقة مع ابني؟

_لا بالتأكيد، رأته عن بعد فقط وهو كذلك، لم يتحدثا سابقاً، وإن كنت متمسكة برأيك فلماذا وافقت وأتيت؟ قلب الفتاة ومستقبلها ليس لعبة، نريد لها حياة هانئة يا مدام عبير.

قالت ذلك زوجة العم ميساء بعصبية، قاطعتها ابتسام:

_الضيفة لا تقصد يا أم مازن، كان محض سؤال.

لم تجرؤ أمها حتى على الدفاع عنها، لازالت مصرة على إتمام الأمور وهذا واضحٌ جداً، شعرت شفق بدماء باردة تجري في أوصالها، ابتلعت غصتها، وكتمت الجرح الذي تركته تلك الغصة، تماسكت واتجهت لغرفتها لتضع الورد هناك.

*****

عند الغروب وعلى رمال البحر كانت تجلس حنين وإيناس وداليا بشكل شبه دائري، ولجانبهن كيسٌ كبيرٌ من الفستق والمقرمشات، وبعض الحلويات، وأمام كل منهن كأس من عصير التوت، وفي منتصف الدائرة توجد عبوة مياه، يُحركنها ليلعبن لعبة الصراحة

والتحدي، وكان الدور على حنين لتسأل داليا، سرحت برهة ثم سألت:

_هل هناك شيء تنتظرينه بفارغ الصبر؟

وما إن أنهت سؤالها حتى أضاء هاتف داليا معلناً وصول رسالة جديدة، فتحتها بتملل وغير اهتمام لترى التالي:

"السلام عليكم، كيف حالك أيتها الطبيبة؟

لقد تم إرشادي إليك عن طريق أحد ما، متى أستطيع المجيئ لعيادتك لو سمحتِ؟ بانتظار إجابتك...

دمتِ بخير.

_علي"

لمعت عينا داليا وصاحت مسرورة:

_مرحى، مرحى، مرحى، أنا سعيدة جداً جداً جداً.

مالت إيناس بجسدها إليها وقرأت الرسالة على عجل فأردفت:

_مجنونة، ولكن افرحي هذا حقك، وعليك أن تشكريني هيا.

قامت داليا واحتضنت إيناس وقبلتها، بينما حنين تطالعهما ببلاهة، ولا تدري لماذا جُنتا فجأة، سألتهما:

_ما بكما؟ ما هذه الرسالة؟ دعوني أرى.

أجابت إيناس:

_أتذكرين سؤالك؟ ها قد أتى الجواب، داليا كانت تنتظر أول أحد سيأتي لتعالجه وتأخذ علامة الامتحان العملي، كانت تدرس وتعمل بجد منتظرة هذه اللحظة و وصلتها الرسالة لأجل ذلك.

_صحيح يا حنين، تخيلي، أخيراً.

قالت ذلك والضحكة تملأ وجهها، فباركت لها حنين، وأعادوا تدوير عبوة المياه من جديد، كانت الأجواء حينها جميلة جداً تحت ضوء القمر الذي أبلج في السماء بعد الغروب، والنسمات الباردة العليلة تنعش القلب، ويخالجك الشعور بالراحة والاسترخاء.

*****

طرق مازن باب المطبخ باتزان، ونادى بدور ليأخذ الحلوى والقهوة، فأذنت له بالدخول، سألها:

_وحدك هنا؟! أين شفق؟

ـجهزت القهوة وقالت: لديها اتصال مهم وهربت، بصراحة لم تكن طبيعية، أنا قلقة يا مازن.

تساءل باهتمام وقد تسرّب إليه القلق:

ـ ما بها يا بدور؟

ـ كانت مسرورة، متألقة كالأميرات، باسمة الثغر قبل قليل، وفجأة بهتت عيناها، وشحب وجهها، وصمتت تماماً، لا أدري ما أصابها!.

شعر بخزة في قلبه، قال بنبرة حاول جعلها مطمئنة:

ـمجرد خوف من الارتباط، وربما مُتعبة من العمل طوال اليوم، اذهبي وكلميها، سيناديها أبي بعد قليل، حاولي فهمها وخففي عنها إن كانت مرتبكة يا بدور.

ـحاضر يا أخي.

حمل الصينية ومشى باتجاه الباب، دلفت أمل مسرعة كادت تصطدم بأخيها وتُسقط ما بيده، أنبها وأكمل طريقه:

ـانتبهي يا صغيرتي.

أمسكت بطرف بنطاله قائلة بتلعثم وهي تلهث بخوف:

ـمازن أرجوك انتظر، ماما لا تسمعني.

توقفت تمسح دموعها بيدها واليد الأخرى لاتزال تمسك ببنطال مازن، تابعت:

_شفك(شفق) كانت تبكي في الشرفة وهي الآن تقف على الحافة، ذلك ختر (خطر) ستموت أرجوك أنزلها، إنها لا تسمعني.

تسارعت نبضات مازن ما إن سمع ذلك حتى سقطت الصينية من بين يديه، فأفزعت كل من في البيت، وانطلق راكضاً مسرعاً للشرفة.

كانت تقف على حافة الشرفة بجانب أصص الزرع على علو خمس طوابق، فستانها يتمايل مع نسمات الهواء، اقترب منها بحذر وهدوء، ناداها فلم تجبه، كرر النداء فتكررت ردة الفعل المعدومة، كانت تبدو كأنها ليست في وعيها لا تسمع ولا تُجيب ولا ترى، صرخ بها:

_شفق انزلي أرجوكِ.

استدارت نحوه ببطء، قطبت حاجبيها لرؤيته، ثم ابتسمت ببرود ولوحت بيدها أي وداعاً، وأبعدت أول قدمٍ لتخطو للأسفل، عندها فقد مازن أعصابه ولم يعد يستطيع السيطرة على نفسه اقترب منها وانتشلها بقوة وسرعة من على الحافة، كانت تقاوم بقوة وتحاول

التمسك بما حولها من الأشياء لتزيد من قوة الشد وتبتعد عنه، وقع الأصيص الذي تمسكت به أرضا، كان واضحاً جداً بأنها لا تدري ما الذي تفعله، يخاف أن يوجعها بقوته ولكن في المقابل خوفه من إفلاتها كان أكبر، ستؤذي نفسها بالطبع، حاوطها من الخلف يضمها إليه بقوة كي تهدأ ولا تتحرك ومع ذلك كانت تضربه بقسوة لتفلت، اجتمع في الشرفة معظم الضيوف من النساء، صاح مازن:

_أمل أخبري بابا بأنني أريده هيا بسرعة، وأرجوكن فلتعدن للداخل.

صاحت السيدة عبير بصدمة:

_ماذا يحدث؟ ما بها؟

حاولت السيدة ميساء مداراة الأمر، وإعادة الناس للداخل، ولكن السيدة ابتسام كانت تقترب من ابنتها باكية من خوفها عليها، والسيدة عبير غاضبة كالمجنونة وتريد فهم ما يجري، أما ليان كانت تبكي على صديقتها ولكنها انتبهت فجأة بأنها بلا حجاب فركضت للداخل وجلست تدعو لها من كل قلبها.

لم تهدئ دقات قلب مازن كانت تتسارع بجنون ليس لرؤيتها بهذه الحالة الغير طبيعية فحسب بل لوجوده بهذا القرب منها ولأول مرة

في حياته، حضر السيد سعد أخيراً ومعه براء، كان يدري بأن هناك مصابٌ ما لكنه لم يتخيل حدوث كل هذا، رُسمت الصدمة على ملامح سعد بإتقان، لرؤية شفق بتلك الحالة بين يدي ابنه، رفع حاجبيه واقترب منهما وسحب شفق إليه ومسح على رأسها بحنان وهو يسمي الله عليها، ثم ضمها إليه فاستسلمت وهدأت، كانت قواها قد خارت من كثرة المقاومة والمحاولة للإفلات من مازن.

نظر براء بصدمة بدأت عيناه تجوبان المكان الذي عمت فيه الفوضى وكأنه يبحث عن الإجابة.

شفق في حضن عمها سعد تبكي بهلع غير مدركة لواقعها، مازن جالس في مكانه ما زال يداري قلقه وقلبه يرتجف قبل يداه، بدور تحرك أُصص الورد المكسورة من المكان، ابتسام واقعة على ركبتيها من الخوف وهناك احتمال كبير أن ضغطها قد ارتفع، وميساء تهدأ من روعها، وليان تحاول البحث عن قطعة قماش لتغطي شعرها وتخرج إلى صديقتها، والسيدة عبير بدأت تشعر بأن هناك سر لا تعرفه عن هذه الفتاة التي لا تطيقها، حملت حقيبتها وسحبت ابنها براء خفيةً وهي تهمس له:

_هيا لنخرج من هنا حالًا.

_عيب يا أمي، على الأقل ننتظر أن تهدأ الأمور، ونفهم ما حدث.

_لا وجود لأي أمور بيننا منذ هذه الدقيقة.

_أمي...

_اسكت ولا تدعني أرى لسانك ينطق بأي كلمة أخرى، تركتك تدير كل الأمور على راحتك، الآن لن أفعل، هيا بنا وإلا غضبت عليك.

رحلا بهدوء تام دون أن يلقيا كلمة مطمئنة في المكان، وسعد يراهما وهو بلا حيلة ويقول في نفسه:(سامحك الله يا أخي، لقد تركتني بلا حيلة ورحلت)

تركوا ليان عند شفق في غرفة النوم، والعائلة كانت في الصالة جالسة تفكر، كل واحد مع نفسه، الهدوء يخيّم على المكان، ولكن هناك ضجيج يملأ عقولهم.

كلٌ يحاول أن ينسى ما حدث بالغصب، ابتسام قلقة على ابنتها جدًا، ولكنها بحال صعب، تعيش مع شقيق زوجها فتخجل مما حدث وتلوم نفسها وتقول:

_أعتذر لكم عن ما حدث، أنجلناكم مع الضيوف، والحفل انتهى قبل أن يبدأ وأود أن...

_فليذهب الحفل والضيوف إلى الجحيم يا خالة، فليذهب كل شيء ولا تذهب شفق.

_مازن، تحلى ببعض الأدب وأنت تُكلم زوجة عمك.

_أعتذر...

_لا تقلقي يا أم شفق، المهم صحتها وهي ابنتي كما بدور وأمل، هناك خير في كل شيء.

ذهب مازن لغرفته، وخلع ملابسه ليأخذ حمامًا بعد ما عانى من تمزق لثيابه وتعب لجسده، ولكن برغم ما حدث كان هناك شعور خفي في قلب مازن، شعور عذب بأنه كان يحاوط شفق بكلتا يديه وكانت في حضنه، حتى وإن جاء هذا الشعور في وسط فوضى، لكنه لا يُنسى، شعور يتمنى أن يعيشه في الحلال بكل حب.

صلى بعد أن انتهى ودعا الله بأن يحفظها ويرزقه إياها، ويلطف بقلبه المعذب إلى ذلك الحين.

ولَيتَ القلُوبَ كَالعيُونْ..
نَستَطِيعُ إغلاقَها حِينَ تؤلِمُنَا...
_لقائله.

بمريولها الأبيض وحجابها النيلي كانت تجلس في عيادة الطبيبة التي تشرف على تدريب وعمل داليا، طرق الباب فأحالت الأوراق التي تقرأها جانباً وأذنتِ بالدخول، دلف بخطى مترددة للداخل مرتدياً بنطالاً وقميصاً باللون الأسود، تفاجأ عند رؤيتها، ألقى التحية وجلس قبالتها متسائلاً:

_ألستِ تلك الـ...

قاطعته داليا بابتسامة:

_بلى هي، أهلا بك هلّا تفضلت بالتعريف عن نفسك؟

_عليّ، خمس وعشرون سنة، ما الذي تودّين معرفته أيضاً؟

_حدثني عم تريده أنت، ما سببُ مجيئك إلى العيادة أستاذ علي؟

_فقدت رغبتي بالحياة!.

أتعلمين أيتها الطبيبة إننا عندما نحب الحياة نرى لكل شيء فيها لونٌ مختلف، كله جميل، دافئ، مبهج، لكل شيء لونٌ خاص، ثم نحاول ترتيب ما أهم لونٍ لنا ونسعى إليه، ونجرب غيره أحياناً للاستمتاع بشيء جديد، ولكن فجأة عندما يختفي حبنا لها، نراها بلونٍ واحد، كئيب، ممل، تتساوى في نظرتنا كل الأشياء، وكأنه لا شيء يستحق لنكمل لأجله.

_منذ متى أنت فاقدٌ للشغف هكذا؟

قالتها بمرارة وهي تراقب حاله المنطفئ.

_منذ شهرين تقريباً ولكن لم يكن الأمر متطوراً إلى هذه الدرجة.

_لماذا لم تبحث عن علاج حينها؟

_كنت أظن أني سأتحسن للأفضل، لكن منذ الحادثة وخاصة بعدما خضعت لعملية التجميل، أنا لم أعد أنا، تمنيت لو كانت هناك عمليات تجميل للأفكار التي تراودنا، للمخاوف التي تنهش بنا، للمشاعر الأليمة التي تداهمنا ولا نعرف كيف نتصرف حيالها، كانت الجروح التي تحتاج لعملية هي جروح داخلية، لا يراها أحد ولا يشعر بها سوانا.

_ما الذي زاد من حدة الأمر؟ في العادة تكون هناك أسباب كثيرة خفية، بينما حدث واحد فقط يجعلك تتذكر كل ذلك وتمر بحالة الانطفاء هذه، فيكون بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير.

_ربما سفر والدتي.

_أعادها الله لكم بالسلامة، حسناً ماذا حدث قبل شهرين؟

_أود الاحتفاظ بذلك لنفسي وعدم الحديث به.

_مع أنها ستفيدنا لكنني أحترم رغبتك، هل تعاني من اضطرابات في النوم وتعب وإرهاق غير مبرر؟

_نعم دائماً.

_وما الذي تزامن أيضا مع هذه الأشياء؟

_كوابيس أحياناً وقلة شهية، لدرجة أن يمر اليوم كاملاً بدون أي وجبة.

_قد تأكدت الآن مما تعاني، سأكتب لك بعض المهدئات وعن أوقات تناولها، وعليك أن تهتم بغذائك جيداً، أرجو الالتزام بذلك، اتفقنا؟.

وابتسمت ابتسامتها الوضاءة، بادلها بسمة مصطنعة قائلاً:

_اتفقنا، أيمكنكِ أن تخبريني بما توصلتِ إليه؟.

رفعت رأسها ناظرة إليه وأكملت كتابتها، ثم سلمته الورقة مردفة:

_لا تقلق، إن عالجناه باكراً فليس هناك خطر وستعود لترى الحياة جميلة، إنها بداية اكتئاب.

تنهّد وطوى الورقة ثم وضعها في جيبه، ووقف شاكراً إياها خارجاً من العيادة، نادته داليا:

_ابتسم وعدني بأن تُكمل ما بدأته اليوم، الكثير من المرضى يكتفون بالجلسة الأولى.

أومأ لها بالإيجاب وخرج، وما إن أُغلق الباب، حتى انفجرت داليا بالبكاء وهي تتمتم:

_تباً للعلاج النفسي وللوقت الذي قررت فيه دراسته، كيف سأستطيع ألا أبكي أمامهم ولا أواسيهم ولا أربت عل أكتافهم، كيف سأزيح قلبي جانباً وأنا أعمل؟

يا الله يملك أجمل عينين في العالم كله، ولا يرى جمال الحياة فيهما!

بكت قليلاً ثم قالت بحزن:

_لو كان بإمكاني أن أجد عصا سحرية ألون بها الحياة لكل حزين، لو بإمكاني توزيع الطمأنينة على القلوب الخائفة، يا رب أعطني القوة لأتابع ما بدأت به، وهوّنه علي فهو عليك هيّن.

"ليتني استطعت إخبارك أنني لم أتصنع أياً من تلك الكلمات التي كنت أسردها لك بشكل عفوي، كل شيء خرج من فمي كما شعرت به في صدري، وكانت هذه مشكلتي الأبدية."

لقائله.

كانت كل من بدور وشفق تحتسيان القهوة في المطبخ، تحكي بدور لشفق عما حدث ليلة البارحة، وشفق صامتة بعجز، أقبل مازن ملقياً تحية الصباح، سألهما:

_كم الساعة يبدو بأنني قد تأخرت في النوم، هل ذهب والدي؟

_التاسعة والربع، نعم وقد ذهبت أمل معه قبل قليل، لا بأس جميعنا نحتاج أن نتجاهل منبه الاستيقاظ يوماً ما وننام براحة.

قالت بدور، فأكمل مازن:

_سأتوضأ لأصلي الضحى وآتي، جهزا لي قهوتي، صحيح لم لم تذهبا لدوامكما؟

أجابته شفق:

_لن أذهب اليوم، لدي موعد عند الطبيبة كلمتها وأخذت موعد، وبدور دوامها عند العاشرة، تقريباً سننزل جميعاً معاً.

صمتت قليلاً ثم تابعت:

_مازن، أريد التحدث معك.

كاد يمشي فتوقف برهة، ثم استدار قائلاً بلطف:

_سنتحدث مساءً أو في الطريق، اتفقنا؟

_اتفقنا.

عند العاشرة أوصل مازن بدور للمعهد، وسأل شفق عم كانت تريد الحديث بشأنه.

_أنا آسفة.

_عمَّ تتأسفين؟

_عن كل ما سببته لك من متاعب البارحة.

ارتبك وتسارعت دقات قلبه عندما أتت على ذكر البارحة، "يبدو بأنها علمت من تلك الثرثارة بدور كل شيء" قال في نفسه، ثم أجابها بصوت يحمل بعض الإحراج:

_بصراحة أنا من عليه الاعتذار، قد أنجلتك أمام الحضور وخاصة براء، ولكن صدقيني كنتُ مضطراً لذلك وسأشرح ذلك لخاطبك بنفسي، شفق، أنا الذي أخاف عليكِ حتى من نفسي لم أحتمل رؤيتك بتلك الحالة، ولا أستطيع تخيل ما كان سيحدث لو لم أتدخل بتلك الطريقة حينها!.

خالجها شعور غريب لم تعتده لسماع كلمات مازن، أخفضت رأسها صامتة لا تجد رداً، أحياناً تبدو اللغة واسعة جداً لتشكل آلاف الكلمات، وأحياناً تضيق فلا تُشكل كلمة واحدة، ثم أردفت وكأنها تذكرت شيئاً:

_ما كنت سأتحدث بشأنه عن شيءٌ آخر، لقد طلبت مني الطبيبة إحضارُ أحد من عائلتي يعرفني جيداً، هل لك أن تأتِ معي؟ لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، أعتذر مجدداً لإثقالي عليك بالطلبات دائماً.

ابتسم قائلاً:

_لا تتأسفي يا شفق، فأنتِ عزيزةٌ وكل ما تطلبينه ليس بعزيز، سأنزل معك، بالمناسبة هل نفد نبع الشكولا عندكِ؟

ضحكت قائلة:

_ليس نبعاً، إنها كـ بحيرة صغيرة وجافة حالياً.

_حسناً، ستمطر اليوم حتى تصبح نبعاً.

وصلا للعيادة، وصعدا معاً، أقبلت السكرتيرة طالبة من مازن الدخول إلى مكتب الطبيبة وحده، وعادت لمكانها بعد أن سلّمت على شفق، دلف للداخل كان مازن شاباً طويلاً، أبيض البشرة، بني الشعر والعينين، يرتدي بنطالاً بلون بنيٍّ فاتح وقميصاً زيتياً، جلس قبالة الطبيبة بوجه بشوش، رحبت به قائلة:

_أهلاً وسهلاً، عندي بضعة أسئلة وأتمنى بأن تجيب عليها بصدق وصراحة من فضلك، أنت من أقاربها صحيح؟

_مازن ابن عمها، تفضلي حضرة الطبيبة.

_هل تعبر شفق عن مشاعرها أمامكم بالمنزل؟

أطرق يفكر ثم أجاب:

_أحياناً وليس دائماً، لكنها هادئة وصامتة معظم الوقت.

_هل تعرضت لصدمة ما في حياتها؟ خاصة في فترة الطفولة؟

_ربما حينما توفي والدها، لا أدري إن كنتُ على علم ولكن والد شفق كان مدمن مخدرات، وقد توفي إثر حالة جنونية بجرعة زائدة

بعد حرمانه من ذلك المخدر لعدة أيام، ولذلك فإن ما عاشته في طفولتها يفوق الصدمة يا حضرة الطبيبة.

_هل لديكم تاريخ وراثي بأي نوع من الأمراض النفسية؟ وما هي لو وجدت؟

_لا أبداً.

_حسناً نأتي للأهم الآن، هل لاحظتم شيء متكرر عند نوبات الانتحار المفاجئة تلك؟

_ما تكرر هو اختيارها لرمي نفسها من الشرفة وقد تكرر مرتين.

_ألا تذكر ما حدث في كلتا المرتين قبل ذلك؟

_للأسف لا، أنا شاب ولا أتواجد دائماً في المكان ذاته معها لأعرف ما الذي جرى تماماً، لكن عائلتي تقول بأن الأمر مفاجئ، تكون سعيدة ثم تحزن فجأةً وتتصرف وكأنها ليست في وعيها.

_حسناً أستاذ مازن، أشكرك للحضور والتعاون معي.

_هل توصلتِ لشيءٍ بشأنها؟

_ليس بعد، صحيح قبل ذهابك أود سؤالك، توصلتُ من حديثها بشكل غير مباشر أن والدتها سبب موافقتها على الزواج، وكأنها ليست مقتنعة بذلك، هل لديك فكرة عن الأمر؟.

_بصراحة لا، على العكس تفاجأت بسماع ذلك، سأحاول الانتباه لذلك وسأخبرك بما أتوصل إليه.

اشترى علي الدواء واتجه للمسجد صلى وقرأ قليلاً من القرآن ثم ذهب لمنزل السيدة أم خالد التي يجد في كلامها أُنساً لوحدته، ويرى فيها أمه الغائبة، وكذلك الفسحة في منزلها تروح عن النفس حيث اللون الأخضر يحتضن المكان ورائحة الزهور تدغدغ الأنف بلطف، نصحته بالقراءة قائلة :

_أتلو القرآن يا ولدي ففي سورة البقرة دواء لكل داء وراحةً لكل متعب، وسكينةٌ لكل خائف، داوم عليها وانظر للخير والبركات التي ستلف حياتك، واختر الجميل من الكتب والذي يعيد لك معنى الحياة ويذكرك بالنعم التي تحيط بك من كل جانب، ولا تنسَ أن في التسبيح نوراً لكل ظلمة يا عليّ.

ردد علي بألم:

_حاضر يا خالتي سأحاول، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

*****

كانت شفق تحضّر السلطة وبدور تنظّف الأطباق وهما يتبادلان الحديث، سألت بدور:

_أها وماذا قالت لكِ؟

_أخبرتني بأن انتبه أكثر لما يزعجني وأدونه مباشرةً، حتى نجد سبب ما أدى للانتحار، وبأن هناك موقفٌ ما يتكرر فأفقد وعي وإدراكي واتصرف بلا وعي وهذا الموقف متخزن في العقل الباطن، لا أدري هذا ما فهمتهُ منها.

_وماذا قالت بشأن براء؟

_نصحتني بأن هذا ليس الوقت المناسب، عليّ التأني وإعادة التفكير بالأمر، على كل حال أظن أن الأمر انتهى بعد ما حدث يا بدور، صحيح كيف دراستك؟

_جيدة، تزحف زحفاً، ههههه إنها بخير لا تقلقي.

*****

كرر الاتصال ثانية ولا أحد يجيب، رمى الهاتف جانباً واتجه للمطبخ فتح الثلاجة وتأملها لبرهة، يفكر فيما سيطهوه اليوم، ولكن لا شهية له لتناول الطعام، أغلقها بلا مبالاة عند سماعه رنين الهاتف مسرعاً ليجيب، أخيراً سيطمئن عليها.

ـ كيف حالك يا أمي؟ متى وصلتِ؟

ـأهلاً علي، الحمد لله أنا بخير وصلت البارحة بعد منتصف الليل، كيف حالك يا ولدي؟

ـعلى خير ما يرام، أشتاق إليكِ.

ـ كيف العمل؟

ـمنقطعٌ عن كل شيء، أخاف أن يعثروا عليّ ويتم تهديدك بي لتعودين.

ـلا تخف يا قلب والدتك، لن يستطيع أحدٌ أن يؤذيك ولا يؤذيني انتبه لنفسك جيداً حتى عودتي.

ردت والدته بذلك ثم أغلقت الخط، إن الفراغ هو سبب كل مشكلة، لولا الاختفاء الذي هو فيه وحالة الانطواء التي تربّى عليها لكان الآن لديه ألف صديق يكلمه يخرج معه ويأتي إليه، لكان في حياته بعض المرح والشغب، كل الأشياء تحتاج كتفاً لتميل عليه حتى يعود توازنها، لكن وحدته كانت أقسى من أن تمنحه مجرد شبح لشخص، عليه أن يبحث عن أي عمل حتى يكسب قوت يومه ولا يبقى على هذه الحالة، مسلماً نفسه للفراغ وللأفكار السوداء

والذكريات المؤلمة، والآن سيتوضأ ليبدأ بالانتظام على تلاوة سورة البقرة يومياً كما أوصته الخالة أم خالد.

تململت داليا في جلستها، خالتها تطهو الطعام في المطبخ وسالم الصغير ابن خالتها يلعب أمامها، وإيناس منذ ساعة انتهت من تنظيف الأطباق وذهبت لتجهّز نفسها من أجل الخروج مع داليا، هكذا هي دائماً لا تخرج قبل أن يكون كل شيء جيد تماماً، عادت مريم للمنزل ألقت التحية على داليا وجلست ترتاح وتنزع حجابها متأففة ثم نظرت إليها قائلة:

_كيف تحتملون هذا الشيء، أكاد أجن منه.

_ستعتادين يا مريم، البداية صعبة فحسب، ثم إنه عبادة وهو ما يُميزنا، الحجاب دليل على الهوية الإسلامية فعلينا أن نعتز به يا غاليتي.

_لكنه لا يليق بي ليس مثلك، إنه يجعلني قبيحة.

_على العكس إنك أميرة، ثم من قال لك بأننا نضعه لنبدو جميلات؟!، لستِ قبيحة أبداً لكن وجهك لا يزال صغيراً فتشعرين بأنه لا يليق بك، نحن نضع الحجاب لنخفي زينتنا وجمالنا لِنُرضي الله

ونتقرب إليه هذه غاية الحجاب، صدقيني نظرة رضى من الله ترفع درجاتنا عنده خيرٌ لنا من نظرة إعجاب الناس والله غاضب عنا يا حلوتي.

فجأة أقبلت إيناس تصيح:

_هيا يا داليا لقد تأخرنا هيا.

ودعت داليا الجميع وذهبتا معاً.

_لماذا تأخرتِ هكذا؟

_كنت أكلم حنين، أتعبتني من مشاكل بيتها ثم اعتذرت لن تأتي معنا لأن ابنتها مريضة وطلبت أن نمر عليها عند عودتنا من الحفلة.

_عافاها الله، تعالي لنشتري هدية أولاً، هناك محالٌ ممتازة هنا تمهلي.

تستحق

ولو لمرةٍ واحدة

أن يحاول من أجلك أحدهم

-بلا تردد أو حيرة-.

أن يبذل كل ما في وسعه،

كي يحصل عليك.

_لقائله.

_صباح الخير.

_صباح النور يا ليان كيف حالك؟.

_اشتقتُ إليكِ، كيف أنتِ الآن، وماذا حدث في تلك الليلة؟

صحيح لماذا لم تجيبي على هاتفك منذ يومين؟

_الحمد لله، لي الحق بأن أرتاح ليخف ذكر تلك الليلة على نفسي، وأعلم تماماً أن الجميع سيطمئن علي ويذكر ما حدث ثانية، ولا أود سماع ذلك، لم يحدث شيء هدأت وزرت الطبيبة في اليوم التالي فحسب، وغبت عدة أيام لأرتاح.

_عافاكِ الله غالية قلبي، كيف أمورك مع براء؟

_دعينا نتمشى بهدوء، كل هذه الأسئلة منذ الصباح يا ليان، أهذا تحقيق؟

_فضولي سيقتلني، اسمعي سأشتري لك القهوة على حسابي لأنني سأتعبك بأسئلتي.

_لم أره ولم أتحدث معه، وقد حذفنا أرقام بعضنا منذ تقدم لخطبتي، تكلم معه عمي ومازن واعتذرا منه شارحين له الأمر.

_لماذا حذفت رقمه؟

_لا أريد الكثير من الكلام ثم إنها خطوبة فحسب، لو أكملنا معاً نأخذه مجدداً.

ردت بضحكة:

_انظري من أتى، أذكري القط يأتي وينط.

_اسمعي يا شريرة، عندما يحدثني لا تتكلمي عني ولا تدعيني معه وتذهبين فهمتِ؟

أقبل براء بقامته الطويلة وملابسه الرمادية كالعادة معظم ما يرتديه بهذا اللون، ثبت نظارته بسبابته، وألقى التحية عليهما فردتاها بهدوء.

سألها:

_هل يمكننا الحديث قليلاً يا شفق.

ردت بخفوت:

_حسناً.

_اعتذر عما بدر منا يوم الحفلة، لكنني كنت سعيداً جداً، ثم تفاجأت ولم أكن أفهم ما يحدث.

_لا تعتذر، أنا لا أتذكر ما حدث، وآسفة لأنني أفسدت الحفلة.

_قدّر الله وما شاء فعل، لعله خير، تحدثت مع عمك وعلمت بأنك مريضة ولديك مشكلة نفسية فعذرتك، هل بإمكاني حضور إحدى جلساتك لافهم كيف صحتك؟

شعرت بالغصة تقف في منتصف حلقها كالشوكة، ردت متداركة مرارتها ومخفية انكسار خاطرها:

_الأمور بخير، أتعلم والدتك على حق ما الذي جعلك تختارني؟ براء أنت تستحق الأفضل.

_لكنني أريدكِ أنتِ يا شفق.

نظرت للأوراق بيدها لهنيهة من الزمن ثم ردت:

_حالتي غير مستقرة، ربما أخيّب أملك، ثم إن أمك غير راضية عني.

_ثقي بنفسك، أنا رجلٌ عند كلمتي وهذا الزواج يعنيني أكثر من غيري، لا تقلقي أمي طيبة جداً، لكنها تعرضت لأيامٍ قاسية فقست كلماتها وتصرفاتها، أنا واثقٌ بأنها سترضى.

صمت ثم تابع:

_ وستحبكِ كثيراً.

شعرت بالدفء لثقته تلك بأن أمه ستحبها، هل جربت يوماً شعور أن يخبرك أحدٌ ما بأنني أعتقد أن هذا الشخص سيحترمك أو سيحبك، ذلك يدل على أن هذا الشخص يكن لك تلك المشاعر

لدرجة أن يرى أن على الجميع الشعور بما يشعره هو اتجاهك، فكيف إذاً بالثقة وليس بالاعتقاد فحسب!.

صمتت قليلاً ثم أردفت:

_أنا واثقة بنفسي، ولكن.....

_لكن ماذا؟ لا تريدين الإكمال معي؟

أخذت نفساً عميقاً ورددت:

_ليس كذلك، لكنني لا أعرف ما يمكن أن يحدث معي يا براء، لذلك لا أريد أن أورطك معي، أتفهم ما أعنيه؟

_فهمت، لكنك تبالغين في خوفك، ستكون الأمور على ما يرام، وكلي أمرك لله، أقبلي على الحياة، شفق أنا غير مستعد لأخسركِ أو لأتخلى عنكِ ، لكنني أريد الاطمئنان عليكِ فحسب فطلبت حضور جلسة ما، وسأبقى معك لحين انتهاء العلاج، فانظري متى يناسبك الوقت وأرسلي لي رداً مع عمك، هل تحتاجين شيئاً؟

كان على وشك الذهاب، لم يترك لها مجالاً للرد، لكن كلامه بدد ضيقها قليلاً، ردت:

_سلامتك.

_أستودعكم الله.

ومضى في طريقه باتزان، قالت ليان:

شفق بماذا تشعرين بعد هذا الحديث؟

_تأخرنا عن المحاضرة سأحدثكِ عندما أعلم أنا ما نوع المشاعر التي أشعر بها، لأنني لا أعلم.

_أنت اليوم كتلة كآبة يا داليا، سأرميكِ من النافذة بعد قليل.

_آه يا إيناس لا أحتمل ما حدث، أخذته الشرطة من أمام عيني تخيلي، يا ترى ما الأمر، أيمكن أن يكون متورط بأمر ما؟ مجرم؟ له سجل سابق عندهم؟ سأموت حينها، وإلى ذلك الوقت الذي سأعرف فيه سأموت من الخوف عليه.

_أو ستموتين لأن الرمية ستكون مؤلمة، ضاق صدري بك.

_أتعلمين إن أقسى ما قد تمرين به هو معرفة شخص متألق، قوي، مضيء، ثم رؤيته عند انطفاءه! هذا لا يُحتمل تتمنين فعل أي شيء، ولكن العجز يقتلك، وقلبك يحترق على حاله، أحمد الله مئة مرة أنني لم أعرفه قبل اكتئابه، أنا بالكاد أوقف دمعاتي حينما استمع إليه.

ـمادام قلبك ليناً هكذا، لماذا دخلتِ الطب يا غبية؟
ـإيناس اصمتِ، لست بأفضل مني، إن رأيتِ كلباً مشرداً تبكين وتكتئبين لأجله، وها أنتِ طبيبة الآن!

أضاء هاتف داليا معلناً وصول رسالة فهرعت إليه:

"السلام عليكم

أريد أخذ موعدٍ للغد بعد إذنك.

وسأشرح لك ما حدث حينها.

دمت بخير.

علي"

ـمن المرسل يا داليا؟ أخيراً ابتسمتِ!

سألت إيناس بنزق، ردت داليا ببسمة بعد أن نهضت بنشاط:

ـإنه علي، اطمأن قلبي أخيراً، الحمد لله، ذاهبة لأحضّر بعض الفشار.

زفرت إيناس:

_رحِم الله أياماً كنت فيها عزيزة، الآن لم أعد نافعة بعد معرفتك لهذا الإنسان، أنا السبب، كنت حمقاء حينما عرفتك عليه.

تجاهلت داليا ذلك ومضت للمطبخ، تبعتها الأخرى لتحضر الشاي وتكمل سلسلة التأنيب والتحسر على الأيام الخوالي.

في جلسة المساء الهادئة، أعدت شفق الشاي والكعك وضيّفت الجميع ثم جلست تتأهب لفتح الحديث، أردف العم سعد:

_قولي ما لديكِ يا شفق، أشعر بأنك تودين التحدث صحيح؟

ضحكت وخف توترها قليلاً، ردت:

_ كيف عرفت يا عمي؟

_أعرفك جيداً يا بنيتي، هيا تفضلي.

_لقد ألتقيت ببراء صباح اليوم.

كان مازن يدون بعض الأشياء على قائمة طويلة، فترك ما في يديه وراح يتابع الأمر بعينيه، سألت والدتها ابتسام:

_وماذا جرى؟ عمَّ تحدثتما؟

_طلب أن نفتح صفحة جديدة، ونعطي أنفسنا فرصة أخرى.

_وبعد؟

سأل مازن هذه المرة، تجاهلت صوته وبقيت تنظر لعمها متابعة:

_وقد طلب موعد لحضور إحدى جلسات علاجي، يريد لقاء الطبيبة.

سأل العم سعد:

_وماذا عنكِ يا بنيتي، أكان هو المتحدث فقط؟ ما رأيكِ ماذا قلتِ له؟

_كنت أريد رفض ذلك.

قاطعتها والدتها:

_ألم يعتذر وستفتحان صفحة جديدة!، هو ليس مخطئاً بحقك لترفضي، فالحفلة ألتغت بسببنا.

تدخلت أم مازن السيدة ميساء قائلة:

_دعي الفتاة تتحدث براحتها يا ابتسام، ثم إن لها حرية الاختيار، أكملي حبيبتي.

تابعت شفق:

_رفضت لأنني لا أريد أن أظلمه معي، لقد خيبت ظنه في أوج فرحته، براء يستحق الأفضل.

ـبراء يستحق غيرك، وليس الأفضل منك لأنه لن يجد ذلك، عليكِ أن تثقي بنفسك أنتِ تستحقين أشخاصاً يقدرونك وليس كوالدته التي لا تتوانى عن إزعاجك.

قاطعها مازن بذلك، ابتسمت ناظرة إليه وتابعت:

ـعلى كل حال أنا لا أود الارتباط الآن، لكن براء عارض ذلك وأخبرني بأنه سيكون على استعداد ليتحمل كل شيء ويبقى معي حتى أتعافى.

صمتت وراحت كلماته ترن في أذنيها: "أنا غير مستعد لأخسركِ!"، سألها العم سعد:

ـوماذا أجبته؟

ـلم أعطه إجابة، أيمكنك إعطائي رقمه يا عمي إن أردتُ محادثته.

تمنى مازن أن يَضيع الهاتف أو يضيع الرقم، أو يضيع هذا البراء كلياً ويرتاح منه.

رد العم:

ـلا يجوز يا بنيتي، قد تكثر المحادثات بينكما بلا داعٍ، حينما تتخذين القرار حدثيه من هاتفي، أنت زهرة البيت يا بنيتي لا تجبري نفسك على ما لا تريدينه.

ابتسمت متأثرة في كلامه، وابتسم مازن يتمنى بقاء رفضها وابتسامتها.

قالت بدور:

ـأبي، خذنا لمزرعة الريف غداً، منذ زمن لم نذهب أيام العطلة، أكاد أختنق من كثرة الضغط والدروس.

قالت السيدة ميساء:

ـنعم يا أبا مازن، دعنا نذهب هذا الأسبوع.

ـأبشروا يا أعزائي، سنذهب ولكن بشرط، عند الثانية ظهراً سيكون كل شيء جاهزاً لا نود تأخير.

قال سعد، فأومأ الجميع موافقاً، صفقت شفق:

ـيا سلام، نحتاج ذلك فعلاً.

استدركت قائلة:

ـمع الأسف، لدي موعدٌ مع الطبيبة عند الرابعة عصراً، سأحاول إلغاؤه.

قاطعها مازن:

ـإذن انتظريني في المنزل وسآخذك معي مساءً، لأنني سألحق بهم عند السادسة أو السابعة حسب ما يقتضي العمل، لا تلغيه.

قالت ابتسام:

ـحسناً فلتبقى بدور معكِ وتلحقوا بنا مساءً.

عندما نغفو ونحن ننتظر شيئاً، نستيقظ بكامل نشاطنا وطاقتنا، والعكس تماماً فإنا حينما نفقد الأمل والقابلية على الحياة يصعب علينا النهوض من الفراش، إننا حينما نيأس نُصبح كسالى أكثر من اللازم، أما إن دق الأمل أبواب قلوبنا، نشرع النوافذ على مصراعيها ونفقد الرغبة بالنوم.

استيقظت داليا بوجه بشوش، وسعادة لسلامته يشوبها بعض التوتر مما سيقصّه عليها، رتبت فراشها وشربت قهوتها على عجل، وقفت تضع الحجاب على المرآة وهي تعقد صفقة مع نفسها، بأنها ستكون

قوية، لن تضعف، فيليق بها أن تكون بمثابة النور لشخص قابعٍ في الظلام.

ابتسمت وانطلقت للعيادة، استقبلتها الطبيبة سماح عند المدخل، اطمأنت عليها ثم قالت:

_داليا أقدر عملك، وأعلم بأنك تبذلين جهدك، لكننا لا نريد مشاكل، لماذا حضرت الشرطة إلى هنا؟ كنت متفرغة البارحة وعدتُ إلى العيادة لأرى كيفية عملك وأقيم طريقتك مبدأياً، فرأيت الشرطة، ثم خرجتِ من هنا باكية!

ما الذي يجري يا داليا؟ لما البكاء؟!.

_لن يُعاد ما حدث البارحة، أعدك دكتورة سماح، يصعب علي السيطرة على مشاعري قليلاً بعد الجلسة، لكن ليس أمام المريض طبعاً.

_حسناً يا داليا، أوصيكِ للمرة الثانية هنا ليس مكاناً لمشاعرنا الشخصية أنت هنا لتفهمي المرض وتحاولين علاجه، وليس لتتأثري وتتفاعلي مع الأمور من وجهة نظر شخصية، كلنا في بداية الأمر هكذا، لكنك ستعتادين وتكتسبين خبرة مع الأيام، كل التوفيق لك.

_شكراً جزيلاً لك.

صعدت داليا الدرجات إلى الأعلى، فتحت الباب ودلفت بهدوء، كعادتها تفتح الستائر كلياً، تفسح أكبر مساحة لتدلف الشمس لأنحاء الغرفة الباردة وتدفئها، وضعت حقيبتها جانباً واتجهت للنافذة تتأمل السماء، وبعض النسمات تلامس وجهها بلطف، فكرت في كلام الطبيبة سماح، هل حقاً ستكتسب الخبرة؟! وهل الخبرة هذه معناها أنها لن تتأثر بمشاكل المرضى وآلامهم؟ هي ترى نفسها أبعد ما يكون عن ذلك، ربما ستتعلم إخفاء مشاعرها جيداً وليس إيقافها بتاتاً.

بعدها بقليل أخبرتها السكرتيرة بأن عليّ قد وصل لتوه، وسمحت له بالدخول.

(قبل يوم).

خرجا من مركز الشرطة وعلى وجه عمر _والد علي _ ابتسامة المنتصر، وقفا قليلاً، استدار عمر بوقار للخلف يخبر سائقه أن ينصرف لأنه سيتولى مهمة القيادة وحدهُ، ثم نظر باستخفاف نحو علي قائلاً:

_تظن نفسك ستهرب مني؟! مؤسفٌ بأنك لا تستطيع.

ترجل لداخل السيارة وأشار إليه باللحاق به، تنهّد علي ومرر أصابعه على خصلات شعره معيداً إياها للخلف، وتقدم نحو سيارة والدهِ الفاخرة شديدة السواد، الأغنياء هكذا يختارون أجود الأشياء ولكن بلونٍ أسود، يعبرون بشكل أو بآخر بأن الأسود هو اللون الطاغي في حياتهم على كل تلك الألوان.

أردف علي:

_ألم تجد طريقة أكثر رقيًا لرؤيتي؟

_ كان هذا خياري الأخير، بعد فشل كل الطرق، كيف حالك يا عليّ؟

_لا يهم، وأنتَ؟.

_أنا بخير على الدوام معكم أو بدونكم، أين آسيا؟ إنها لا تجيب على اتصالاتي وجميع حساباتها مغلقة، من الأفضل لكما العودة للمزرعة!.

_ونحن لا نريد الأفضل، دعنا وشأننا من فضلك، وقل لي ماذا تريد بشكل مباشر.

_تأدب في الحديث مع والدك فهمت؟ عليكما أن تغلقا أفواهكما أنت ووالدتك وتعودا، لن ندع الناس تتحدث في الأمر وتنتبه إليه.

_يا أبتِ تحدثنا في هذا الأمر طويلاً، سنعود عندما تعود أنت السيد عمر الذي نعرفه، أنت الآن تكاد تذهب بمستقبلنا نحو الجحيم.

نصحو على صراخك، ولا نغفو قبل أن تكسر الدنيا فوق رؤوسنا حتى وصل بك الأمر إلى الضرب، أبي الحياة باتت في الشارع أرحم من الحياة معك، لو كنت فعلاً تهتم بكلام الناس عنا، لأصلحت نفسك وابتعدت عن هؤلاء الناس السيئين.

ضحك عمر ملأ فمه مردفاً:

_هذا ما ينقصني، ابني ينصب نفسه حكيماً عليّ وينصحني، كفى هراء، معكما ثلاثة أيام حتى تفكرا جيداً وتعودا، وإلا فلن يحدث ما يسركما.

خلع نظارته وألقى بنظرة حادة إلى ولده وتابع:

_أين تسكنان الآن؟

_فضلك سابق، سأعود بنفسي.

فتح الباب وهم بالنزول، فناداه والده يعيد عليه ذات التهديدات.

*****

كانت إيناس في ذلك اليوم حبيسة البيت، ولم تذهب للعيادة بسبب المرض، لا قدرة لها حتى على الكلام، تحاملت على نفسها

ونهضت للذهاب للغرفة الأخرى حيث أمها وأخوها الصغير، إنها تكره الوحدة، ترفض أن تعيشها ولو قليلاً، تحب الاستئناس بأي شيء وأي شخص، كان لها من اسمها نصيب فهي إيناس وتحب الأنس كثيراً، هي حزينة قليلاً لأنها للآن لم تلتقي بصحبة حقيقية، وبأناس يستحقون عطاءها وحبها وجنونها، هي حزينة لأنها دائماً تندفع بملء قلبها نحو الأشياء التي تخيبها لاحقاً ولا تدوم معها طويلاً، تتمنى لو تلتقي قريباً بمن يخربش اسمه على جدار قلبها ويعلن عن بداية قصة حب صادق، هاجس الوحدة لا يتركها وشأنها في أي حال، كانت تعاني من التفكير الشديد، والآن في حالة المرض هذه يزداد الوضع سوءاً كثيراً، فهي إنسانة حيوية حماسية، عالية الصوت والطاقة، تصرخ وتضحك وتثرثر كثيراً، فيها شيءٌ من بقايا الطفولة حتى الآن لا يفارقها، هي تفضل أن تكون إنسانة صاخبة كي لا تستمع لأفكارها الموحشة والمشوشة، التي لا تلبث تسمع لها حتى يُخالجها الشعور بالضياع والضيق، وهذا المرض الآن يُفرض عليها السكون فرضاً، فيا رحمة الله تغشّي بقلبها الصغير.

دلفت للغرفة الأخرى فوجدت أمها تقطّع بعض الخضار لطعام الغداء، وسالم الصغير يشاهد برامج الأطفال، ألقت التحية واستلقت

على الأريكة تشاركه المشاهدة، قائلة في نفسها:" ما ضرنا لو عدنا أطفالاً من جديد"، كانت تستعيد جمال ذكريات الطفولة، وتحن إليها، ومن منا لا يحن لوقت كان كل همه فيه اللعب والضحك، وكانت أكبر مخاوفه هو أن ينطفئ النور فجأة، وحلمه الوحيد أن يصبح كبيراً وما إن يكبر قليلاً حتى يتمنى العودة للطفولة وعيشها بكل معانيها، فأكثرنا كبرنا بدون شعورٍ منا، كبرنا على عجل لأن الظروف لم تمنحنا فرصة التمهل، غالباً يحدث ذلك للأخ الأكبر في العائلة، فدائماً الأخ الأكبر بمثابة أب حتى وهو صغير، والأخت الكبرى تكون كالأم وهي في سنٍ صغيرة، فتنطوي فيهم بعض الطفولة باكراً قبل أن تأخذ كامل حقها، كانت تشاهد ولكنها لا تشاهد، كانت حاضرة ولكنها في عالم آخر، أيقظها من ذلك اتصال داليا التي أخبرتها بأنها ستأتي لزيارتها مساء هذا اليوم، وذلك خفف عليها لأن انتهاء هذا اليوم سيكون أهون لو كانت داليا هنا.

يا من بذكراه يَطِيبُ خاطري، أتراك تذكرني وتُطيّب خاطري؟!

_دانية قصاص.

عند الغروب عادت شفق للمنزل ودلفت لغرفتها تُبدّل ملابسها، بينما بدور كانت في غرفتها تحاول إنجاز ما عليها من واجبات والتزامات دراسية ليوم الأحد حتى تلهو في المزرعة وقد انتهت من مذاكرتها، تجاهلت دقات الباب المتتالية على غرفتها، فدلفت شفق قائلة:

_لماذا لا تجيبين؟ على الأقل قولي تفضلي.

_شفق لا تنقصيني الآن أرجوكِ، تبقّى القليل دعيني أنتهي قبل مجيئ مازن واخرجي.

تنفست شفق الصعداء وخرجت من الغرفة، الضغط يجعل الإنسان فظاً في بعض الأحيان، لمحت شاشة هاتفها تُضيء، اقتربت منه فوجدت أنه مازن، فتحت الخط:

_السلام عليكم، كيف حالك؟

_وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، بخير وأنت؟ متى ستأتي؟

_خرجتُ من الصيدلية الآن، ربع ساعة وأكون عندكم، هل تحتاجين شيء ما؟

_لا، سلامتُك، نحن بانتظارك إذن.

_شفق من فضلك ادخلي غرفتي، هناك كتّاب بعنوان "أوراق الورد" اجلبيه معكِ وهناك دفتر فوقه بلونٍ أخضر فاتح متوسط الحجم أحضريه أيضاً.

_حاضر يا مازن، أتحتاج شيئاً آخر؟

_لا أغراضي أخذتها أمي معهم، كنت سأحضر هذه الأشياء معي لكن اختصاراً للوقت طلبت ذلك منكِ.

_حسناً، إلى اللقاء.

وأغلقت الخط، ثم اتجهت للغرفة خطت بضع خطوات داخلها، يا الله إنها لم تدخلها منذ وقت طويل جداً، لديه الآن الكثير من الأشياء التي لا تعرفها، بينما سابقاً كانت تعرف كل صغيرة وكبيرة في هذه الغرفة، انطلقت نحو رف الكتب ففوجئت بأنه يمتلك الكثير من الكتب الجديدة، خالجها شعور غريب مزعج يشبه مشاعر أيام قديمة، عندما غادرتها بعض الطفولة وجُبرت بالابتعاد عن مازن ووضع بعض الحدود بينها وبينه، حينها لم تستوعب بعد بأنها قد كبرت، وما قيمة كل تلك التأنيبات والنصائح، كانت تعتبرها قسوة شديدة، هي الآن فهمت كل ذلك، وعرفت بأن ذلك هو الصواب، ولكن أحياناً يصعب علينا أن نحسب حساب كلماتنا مع من كنا نتحدث معهم بتلقائية وكيفما اتفق وبأي حديثٍ كان، يصعب علينا بناء حواجز مع من كنا نبدو معهم كشخص واحد، تغيرت تلك المشاعر كثيراً جداً، شفق الآن بعد خمس سنوات لا تشبه شفق القديمة بتاتاً، لكن ذلك الشعور عاودها لدخولها غرفته ثانية وتذكر أيام لعبها وضحكها في أرجاء المكان، ولرؤية الكثير من الأشياء الجديدة التي لم تكن هنا، جلبت ما طلبه

منها، جاهدت نفسها وفضولها كي لا تفتح الدفتر، وسارعت بوضعهم في حقيبتها مع أغراضها.

بعد قليل وصل مازن ونزلتا إليه، رحب بهما ثم انطلقوا، صاحت بدور:

_أخييييراً.

ضحك مازن منها قائلاً:

_افتحوا النوافذ، لتتلقوا هواء الريف بعد قليل فإنه يرد الروح، صحيح هل تريدان شيئاً ما؟

_أريد مثلجات، سأودع الصيف بكل طاقتي.

_وأنتِ يا شفق؟

_لا فرق، مثلجات، قهوة، كعك مملح، كله لذيذ.

_تبدين مستعدة لأكل الأخضر واليابس.

قال ممازحاً، فبادلته المزح قائلة:

_مازن، أنزلني سأعود للبيت.

ضحكت ثم تابعت:

_أتظن بأنني سأقول ذلك؟، لا أبداً، ونعم سآكل كل شيء، هذا الجو يفتح شهيتي.

_أنت تفرحين لإقبال الشتاء وأنا أقيم عزاءً لرحيل الصيف، لكن لا بأس بدور شهيتها مفتوحة على الدوام.

_أسعد الله قلبيكما، حسناً إذاً مثلجات ثم قهوة باردة اتفقنا؟!.

في المساء اجتمعت الفتيات في الغرفة، داليا تقشّر لهن البرتقال، وحنين تُسرّح شعر إيناس التي تتدلل عليهن لكونها مريضة، تنهدت حنين قائلة:

_أرجو أن يبقى معاذ بقرب أميرة، لأنها لو استيقظت ولم تجد أحداً لجانبها سيصل صياحها إلى المريخ.

_لماذا لم تحضريها معك يا حنين؟

_موعد المدرسة مبكراً يا داليا، لا تزال في الصف الأول ولكنها تتعبني كثيراً، هناك مشكلة في عينيها على ما يبدو، تخبرني دائماً بأنها لا ترَ جيداً.

أردفت إيناس:

_لا تقلقي، البداية صعبة لكنها ستعتاد، سأرى أحد أطباء المشفى وآخذ لك موعداً لأجلها يا حنين.

_صحيح لم أخبركن، تخيلن أن والداه هو سبب كل هذا!

قالت داليا فجأة، فتساءلت حنين بعد أن وضعت البكلة على شعر إيناس المجدل:

_عمَ تتحدثين، من هذا وماذا هناك؟!

تبادلت كل من إيناس وداليا نظرات ذات معنى، أوضحت تسرع داليا بالكلام، صمتت قليلاً متصنعة الانشغال بتقطيع البرتقالات، ثم شعرت أنه لا مفر، ثم ما المشكلة لو علمت حنين؟ هي أيضاً تشاركهما كل شيء، تنفست بعمق وناولت طبق برتقال لكل واحدة، ثم أخبرت حنين عن علي وعن معالجتها إياه، ثم أكملت:

_وبعد أن سحبته الشرطة فجأة من عندي ممَّا أثار قلقي أنا والطبيبة سماح، ثم كان كل ما في الأمر هو خلافات عائلية_كبيرة على ما يبدو_ ولم يستطع والده القبض عليه لا بالعنف ولا باللطف، فعندما عثرت عليه إيناس في وسط الطريق كان رجال والده يطاردونه ثم تعرض لحادث سيارة فتركه الرجال وهربوا، وهذه

المرة حاول الوصول إليه عن طريق الشرطة حالته تبدو سيئة مؤخراً، أنا خائفة عليه.

تناولت حنين قطعة برتقال قائلة:

_عندي لك نصيحة وأرجو تقبلها، داليا لا تنغمسي بكلك وبكل مشاعرك في طريق لا تعرفين نهايته، علي مجرد مريض عندك ونجاحك في علاجه سيؤهلك لكسب درجات مشروع التخرج، لذلك كوني عقلانية وتحكمي في مشاعرك، ثم ما نوع تلك المشاعر يا داليا؟

نجلت داليا ثم أطرقت قليلاً تفكر، هي فعلاً لا تملك إجابة واضحة أو منطقية، تشعر نحوه بمشاعر شتّى لا تفهم فحواها، انجذاب أم إعجاب، ربما حزن لحاله وربما... حب! لكنها كما قالت حنين لا تعرف ما نهاية هذا الطريق وإلى أين سيؤدي، وبالمقابل لا تريد أن تتوقف.

شعرت برغبة عارمة بالبكاء لكنها كتمتها، مغيرة مجرى الحديث، حاولت حنين أن تداري الأمر رغم انزعاجها من تجاهل داليا لكلامها تماماً، بينما كانت تعرف أنهما لو تناقشتا معاً ستترتب أفكار

داليا وتحزم أمورها، ولكنها على ما يبدو مصرة على ما تفعل ومسرورة بذلك!.

*****

كان مازن جالساً وحده تحت شجرة الليمون، يُنصت لهدوء الليل وحفيف الأشجار يطالع القمر بعينين ملؤهما اليقين بأن خالق الكون العظيم سيجبر خاطره، كانت السكينة تملأ الأجواء فتسربت إلى قلبه أيضاً، شعر بأنه يطير في جنبات السماء لفرط تأمله وغرقه في تفاصيلها، ومن منا لا يحب السماء، ولا يرى بأنها تخفف عنه وتبدد ضيقه بسعتها اللامتناهية؟!

ناجى الله في الكثير من الدعوات، ثم قام ليتمشى قليلاً شعر بالحاجة إلى أنس إلى شخص يشاركه هذه اللحظة الجميلة بكل مشاعرها السامية، فتوقف مستنداً إلى أحد الأشجار وأخرج هاتفه ودلف لمذكرته كاتباً الآتي:

"في المستقبل الذي لا أدري أهو قريب أم بعيد، وعندما نتمشى معاً تحت السماء الصافية في هدوء الليل ونسماته العليلة، سنتأمل النجمات معاً وسأخبرك بأنك نجمتي التي رزقني الله بها من أعالي

السماء الرحبة لتستقر بعمق قلبي، ولتنير فضاءات حياتي وتؤنسها، لن نُفسد جمال اللحظة بالاستماع لأغانٍ تافهة متكررة لنشعر بأننا نعبّر عن طريقها عما نشعر به، هذه طريقة مستهلكة جداً، لأننا نحن سنعيش اللحظة سندع القمر ونجومه والليل وهدوئه يحكي عن كل ذلك بطريقة راقية تسمو بنا في مدارج الحب، ستغمرنا السكينة والسكون الذي يخلو من كل شيء إلا من حفيف الأشجار وهمسات النسمات التي ستداعب وجوهنا بلطف، ومن صوتك وأنت تتحدثين بتدفق عما يعتمل في فؤادك، كما لو أنك تكتبين وكما لو أنني أوراقك البيضاء التي ستفهمك وكأنها تقرؤك وأنتِ تكتبين لها، ستُطبعُ كلماتكِ على جدار قلبي، ستكون يومها أرجلنا على الأرض وأرواحنا فوق الغيوم!

إليكِ."

كم يتمنى لو أنها تفهمه، وتقرأه بذكاء كما تقرأ كتبها وموادها، أو لتقرأ يوماً ما، ما يكتبه لها، هو يشعر بالفضول نحو كل شيء يخصها، وهي حتى عن حاله لا تسأله إلا قليلاً!.

مع أن الأمر قد تكرر كثيراً،
لكنه يمر ثقيلاً دائماً وكأنها المرة الأولى!

_دانية قصاص

في الصباح الباكر، كان الطقس مُشمساً وهادئاً جداً إلا من تغريد العصافير وصياح الديَكة، كانت عائلة أبو مازن تجلس في حديقة المنزل الكبيرة المحاطة بأشجار الليمون، أمل تجلس على أرجوحتها وتدندن، وبدور تجلس قرب شفق تحكي لها عن حلمها الذي رأته ليلة الأمس، ابتسام وميساء تضحكان معاً وهما تفكران في طبخة

الغداء بينما مازن ووالده يجلسان على السطح في الأعلى، وكل واحد معه فنجانه من القهوة، صاحت بدور:

_أمي ما معنى أن شعري قد طال كثيراً في المنام؟

_لا أعرف يا بنيتي، ادخلي متصفح الانترنت وابحثي.

_أمممم، لا أريد، إن رأيت في نومي خروف محشي فإن العم جوجل يفسره على أنه عريس، أشعر لوهلة أني أعيش على حسابه الشخصي ويود التخلص مني.

فضحك الجميع، بعدها رن هاتف السيدة ابتسام فوجئت لرؤية اسم المتصل، رفعت حاجباها وفتحت الخط بعد أن تبادلت نظرة استغراب مع ميساء:

_صباح الأنوار سيدة عبير، جميعنا بخير، كيف حالك أنتِ؟

وضعت شفق الفنجان على الطاولة وأعادت خصلاتها وراء أذنها مرتقبة، أصابها بعض التوتر عند سماع اسم عبير، تابعت ابتسام:

_سأكلم ميساء وأرد لك خبر بالموعد.

صمتت قليلاً ثم تابعت:

_حسناً رافقتك السلامة.

وأغلقت الخط قائلة:

ـإن السيدة عبير تطلب موعد لزيارتنا اليوم، فأخبرتها بأننا لسنا في البيت، ما رأيك يا ميساء؟

ـيا أهلا وسهلا، ليأتوا على الغداء فنأكل ونسهر معاً، أعطهم موعد عند الخامسة، إكرام الضيف واجب على رغم ما حدث بيننا في آخر لقاء، ولكن لننسَ ما حصل.

أردفت بدور بينها وبين نفسها: "لا نستطيع أن نرتاح بأي إجازة"، وبجانبها شفق تتساءل هل فعلاً غيّرت رأيها وستحبها وتبدأ صفحة جديدة؟! ودعت بأن يلطف الله بقلبها وقلب براء ويختر لهما الخير.

صعدت ميساء لتتحدث إلى زوجها بهذا الأمر، أردف مازن عند رؤيتها:

ـيا أهلاً بريحانة الدار، تفضلي شاركينا الجلسة يا أمي.

أخبرتهما بمجيئ عبير وابنها، تغير لون مازن لسماعه ذلك وراح يفكر "ألا يمل هذا البراء؟! أخبرته أنها لا تريد الارتباط الآن، وها هو يفرض نفسه، ويطلب موعد، رحماك يا رباه"

نزل مازن للبيت مكدّر الخاطر، صادف شفق وهو في طريقه لغرفة الجلوس، سألها:

_هل تحدث إليك؟

ردت سؤاله بسؤال وهي تبتسم بنظرة استفهام:

_من؟

_براء ومن غيره!

أجابت بـ لا فأكمل طريقه بنزق دون أن يتفوه بكلمة، استوقفته مردفة:

_مازن انتظر، ألا تريد أخذ أغراضك التي جلبتها لك البارحة.

_ليس الآن، شكراً لك.

_عند الغروب كان الجميع غارقاً بالأعمال في المطبخ، وأبا مازن يوقد النيران في منقل الشواء، دلف مازن للمطبخ سائلاً إياهم إن كانوا يحتاجون شيئاً ما عند عودته، فقد تكلم مع براء للتو، دعت له أمه بالعافية والسلامة.

بعد ساعة كانت كل الأشياء جاهزة، وقد وصل الضيوف، كانت شفق في الغرفة تكاد تنتهي من ارتداء ملابسها، كانت عبارة عن فستان زيتي اللون طويل وفضفاض فوقه جاكيت قصير من الجينز الغامق، مع حجاب بلون سكري مزركش بوريقات خضراء.

كانت النساء تجلس في غرفة الجلوس والرجال في حديقة المنزل، دلفت شفق للغرفة وراحت ترحب بالسيدة عبير بلطف، بادلتها الأخرى الترحاب وقدمت لها الأخرى باقة من الورود الجورية بيضاء اللون، فواحة الأريج، شكرتها شفق بامتنان.

بدأت كل من شفق وبدور تجلب الأطباق للطاولة، ومازن كذلك كان يتردد لنقل الأطباق، حينما دلف وكانت شفق هناك، شعر بأن الزمن قد توقف لوهلة، وشعر بألم أيسر صدره، كانت تبدو كـفراشة تتحرك بخفة هنا وهناك، وبالمقابل كان هو واقفاً يتمنى لو أن هذه الفراشة التي تخطف قلبه، تكون له في يوم من الأيام، وتحلق تحت جناحه فحسب ليشعر أن الدنيا بأكملها حديقة أزهار، انتبهت لشروده ابتسمت ناظرة إليه تحرك كفها أمامه:

_هيي مازن، مالك؟ نائم!

قطعت حبل أفكاره وأحلامه بصوتها، هو يعلم تماماً أنه هنا منذ قليل فحسب ومع ذلك خجل من نفسه كثيراً، واستغفر الله في داخله، ثم اعتذر يخبر إياها بأنه كان شارداً في موضوع ما، ناولته صينية تحوي الصحون الفارغة والملاعق قائلة:

_تفضل، ضعها هناك وعد تبقّى طبقٌ واحدٌ فحسب.

بعد قليل، كانت شفق تجلس قرب بدور التي ترتدي بلوزة بنفس اللون الزيتي، طويلة الأكمام وعليها زهور بيضاء، وتحتها بنطال جينز، ترفع شعرها للأعلى، كانت أم براء تنظر لكليهما معاً مقارنةً بينهما في نفسها، قالت بادئة بتناول الطعام:

_كلي جيداً يا شفق، ستتحولين لهيكل عظمي عما قريب، تكادين تختفين بين ملابسك، ستليق بك أكثر لو سمنتي قليلاً.

توقفت الملعقة التي كانت بطريقها لفم شفق، وعادت للطبق، هكذا هي دائماً لا تستريح حتى ترمي بأشواك كلماتها نحو شفق وترى أثرها السلبي عليها، هتفت ميساء:

_يا بنات أنسيتن الخبز؟

قامت الاثنتان سريعاً نحو المطبخ، أردفت بدور سريعاً، وهي تمد يديها نحو شفق بالخبز:

_خذيه لهم وأنا سآخذ البقية للداخل.

امتعضت شفق ومضت تحمله إليهم، أردفت بخجل عند وصولها:

_مساء الخير، ها هو الخبز، هل تحتاجون شيئاً؟

صمت مازن منزعجاً من حضورها، فقد شعر بأنها تبدو جميلة جداً اليوم، ولا يريد أن يراها براء وهي كذلك، لكنه يثق بأنه مهما كان الشخص جميلاً في عيون الناس لن يكون بالجمال الذي تراه فيه العيون التي تحبه.

شكرها العم سعد، وأردف براء باسماً لرؤيتها:

_سلمت يداكِ، وطاب مساءكِ.

بادلته الابتسامة بحياء وعادت للداخل، هي لا تدري ماذا تفعل، هو يحاول التمسك بها بأي طريقة، وأمه تحاول كسر خاطرها بأي طريقة أيضاً، تنهدت وعادت للداخل.

_جزاكم الله خيراً وسلمت أيديكم، أخبروني ما الذي أعدته شفق من هذه الأطباق؟

قالت عبير وهي تتناول الطعام، ردت بدور:

_الحساء والمقليات أعددناها أنا وهي معاً.

_لا تعرفين الطبخ يا شفق؟

_بلى، ولكن ليس كثيراً، لا زلت أتعلم.

ردت شفق فتابعت ميساء:

_الدراسة والجامعة تأخذ معظم وقت الفتيات، ثم إن الطبخ سهل وهما ماهرتان، ستتعلمان سريعاً حينما يحتاج الأمر ذلك.

تنهدت عبير:

_أنا أسأل الفتاة، لماذا الجميع يرد عنها إلاها، أكاد أخالها خرساء وصماء!، هداك الله يا بني على هذا الاختيار.

نظرت شفق بطرف عينيها إليها، ابتعلت غصتها بمرارة ثم نهضت متجاهلة كل شيء، دلفت للمطبخ تغسل يديها بشرود، تبعتها بدور ولكنها توقفت مصدومة عند باب المطبخ، كانت شفق تحدق في اللاشيء والماء ينهمر من الصنوبر بغزارة، تحمل السكين في يدها وتحركها ببطء نحو اليد الأخرى، وفجأة أمسكت برأسها مغمضة عينيها وانزلقت السكين واقعة في المجلى، مما جعلها تنتبه إليها، غسلت وجهها بالماء مطوّلاً وأغلقت الصنوبر، راحت تفكر: "يا الله، ما الذي كنت سأفعله بنفسي قبل قليل!" ثم دخلت بدور مواسية إياها وناصحتها بأن تضع حداً لما يحدث.

في مساء ذلك اليوم وبعد رحيل الضيوف، خلد كل من سعد وميساء للنوم، أما ابتسام فكانت جالسة تحيك وشاحاً صوفياً لأمل النائمة على رجلها، قالت بدور وهي تنظر لكل من مازن وشفق:

_تعاليا نلعب لعبة الصراحة في الحديقة ما رأيكما؟

كانت شفق تتصفح في هاتفها، فأغلقته وأومأت موافقة، وكذلك مازن الذي كان يقرأ في كتابه الذي استعاده من شفق قبل قليل، فوضعه جانباً ونهض ثلاثتهم للخارج، تحلقوا حول الطاولة وابتدأت بدور سائلة شفق:

_ما الذي يجعلك لا ترفضين هذه الخطوبة تماماً يا شفق؟

تنهدت الأخرى مجيبة:

_أشعر بشيء صادق اتجاه براء وأشعر بأنه يبادلني ذلك، قال لي كلمتان ذات يوم لا تزالا في بالي للآن: "أنا لست مستعداً لأخسركِ" إنه يحاول بجهده أن يصلح ما تفسده والدته، أريد إعطائه فرصة.

أردف مازن:

_إنها تهدم ثقتك بنفسك ولا تتوانى عن إزعاجك، ثم لا تنسي بأنك ستعيشين معها بعد الزواج، فكري جيداً يا ابنة العم.

هزت برأسها ثم جاء دورها لتسأل مازن، ابتسمت قائلة:

_مازن صراحة أم تحدي؟

_مع أننا دائماً نلعب صراحة فقط دون التحديات لأنها غالباً مزعجة، حسناً يبدو أن لديك تحدٍ ما صحيح؟ حسناً تحدي كما تشائين.

اتسعت ابتسامتها قائلة:

_دعني اقرأ في دفترك الصغير الجميل، أكاد أموت لأعرف ما به!

تفاجأ مازن كثيراً، ضحك قائلاً:

_إنها خصوصيات، لا أستطيع.

_وتخسر التحدي؟

قالتها بلهجة استنكارية، فأومأ إيجابياً، تابعت:

_اختر أنت الصفحة وأنا اقرأها، أريد معرفة ما يحويه وإلا فسأموت، لن أرى كل شيء أطمئن.

ضحك مجدداً ونهض ليحضر الدفتر.

"لا تفعلُ المُسكّناتُ
ما تفعله كلمةٌ حنونة أثناء التّعب
هوِّنُوا على بعضكم الحياة"

_لقائلها.

بعد عدة أيام:

_السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا خالة.
_وعليك من الله السلام يا بني، تفضل، كيف حالك وكيف حال والدتك؟

_إنها بخير، وتبلغك سلامها، تحدثت إلى خالي بالأمر أخيراً، وسيتفاهم مع أبي قريباً.

جلبت الخالة أم خالد بعض البرتقال وشرعت في تقشيرها، كانت تحب إكرام الضيوف بأي طريقة مهما كانت، رغم أنها وحيدة وحاجياتها تكاد تكفيها، لكنها حنونة وكأنها أم للجميع، نظر علي إليها بعطف شعر بالحنين لوالدته ،أخذ عنها وبدأ يقشر بنفسه، فراحت تدعو له بالخير والتوفيق.

سألته عن أحواله وصحته، فناولها قطعة برتقال بعينين مبتسمتين وأجاب:

_الحمد لله فقد تحسنت كثيراً عما سبق، ووجدت عملاً.

تناول قطعة برتقال وتابع:

_أتعرفين مطعم اللقمة الطيبة؟ هناك عمٌّ طيبٌ رحّب بي وبدأت العمل عنده كمحاسب، سأجلب لكِ مساءً طعاماً من عنده، أخبريني ماذا تحبين يا أمي؟

كان يعلم مدى حبها لكلمة أمي، فبات يكررها دائماً، كان بحاجة لنطق تلك الكلمة وكانت هي بحاجة لأن تطرق مسامعها كلمة كهذه، كانا يتقاسمان الوحدة معاً فتخف وطأتها على كلاهما،

شعرت أم خالد بتغير تصرفات علي قليلاً وازديادها ليناً عما سبق، كان ذلك بسبب العلاج، ولأن داليا قد بذلت جهداً كبيراً لتحاول إخراجه من تلك الحالة، مما أصابه بالحيرة من كل هذا العطاء واللطف معه، وقد تسربت تصرفاتها الحنونة نحوه ليبدأ هو أيضاً بالتصرف مثلها، قد تصيبنا القسوة أحياناً لأننا تربينا عليها ولم نرى سواها في حياتنا، ولكننا ما إن نُعطى المحبة حتى نبدأ بمنحها نحن أحياناً على نفس النحو الذي تلقيناها به.

نحن في أيامنا السيئة نحتاج من يدعمنا، من يشعرنا بأننا جميلين رغم البشاعة التي نرى فيها أنفسنا والعالم، نحتاج من يصفق على محاولاتنا الفاشلة قبل الناجحة، لننهض من جديد.

*****

_صباح الخير، كيف حالك؟

_صباح الخيرات مازن، بخير الحمد لله، متوترة قليلاً سيأتي براء اليوم لجلسة الطبيبة.

_لماذا لم تخبريني؟

_أخبرت عمي وأخذت موافقته.

قالتها بضيق وكأنها تقول له لا داعي لإخبارك، أردف قائلاً:

_حسناً، حظاً موفقاً، متى آتي لأصحبك للبيت؟

_لدي محاضرات ثم سأذهب مع ليان لعيادة طبيبة الأسنان، ومن ثم إلى الطبيبة سماح، وهناك سألتقي ببراء ليحضر الجلسة ويتحدث للطبيبة، آه جدولي مزدحمٌ اليوم.

_إذن سآتي قرابة السابعة؟

_نعم.

أومأ لها وتابع:

_انتبهي لطعامكِ وشرابكِ، لا تنسي نفسك وسط انشغالات اليوم.

عم الصمت برهة، ثم أردفت شفق:

_مازن.

استدار ناظراً إليها، فقد كان نداؤها بنبرة الرجاء، تابعت:

_أنا خائفة، لا أدري ما السبب!

أجاب بلطف:

_اكثري من التسبيح واستعيني بالله، سيكون كل شيء على ما يرام لا تخافي يا ابنة العم.

_هل أخبرك شيئاً؟

أجابها بنعم، كادت تتحدث ثم صمتت قليلاً تفكر هل تكمل كلامها؟
تفاجأ لصمتها فسألها:
_ما بك يا شفق؟ أكملي.
حنت رأسها للأسفل متنهدة بأسى، كيف تخبره بأنها تحتاجه بجانبها اليوم، يا الله لماذا يصعب علينا البوح باحتياجنا للآخرين حينما نكبر؟ (أحتاجك) هي كلمة واحدة فقط ولكنها صعبة النطق، كل ما في الأمر أنها متوترة وخائفة ووجود مازن يشعرها ببعض الأمان، مشكلتها أنها تمر بفترة صعبة، فإنها لا تحتاج مازن بعينه بل تحتاج رجلاً لجانبها في مواقف مثل هذه، تحتاج رجلاً يشد أزرها ويمنحها الطمأنينة والثقة لمجرد قربه منها، عمها لديه مشاغل كثيرة، وتعرف بأنها تُتعب مازن معها في كل أمرها، كتمت دمعاتها بصعوبة، الألم في داخلها لا يُطاق!
تشعر بالوهن والتعب، تتمنى لو تتوقف حياتها فقط لوهلة من الزمن حتى تسترد أنفاسها لتتابع، لكن الحياة لا تتوقف، تمضي مسرعةً وما علينا سوى تجاوز كل شيء حتى تعبنا ومشاعرنا.

شعر مازن بإنها تريد قول شيء يصعب عليها التفوه به، لكن مشكلته أنه يعرفها تماماً، إذا قررت ألا تقول شيئاً فهما أصر عليها سيفوز عنادها بالتأكيد مهما كانت حالتها، لكنه سألها رغم ذلك:

_ما بك شفق؟ ها قد وصلنا الجامعة ولكن قبل نزولك ستخبريني ماذا هناك؟

_لا شيء يا مازن، كل ما هنالك أنني أفكر أكثر من اللازم، شكراً لك على كل شيء.

قالتها أثناء نزولها ثم مضت بخطى سريعة.

دلفت لعيادتها تحمل أقلاماً ملونة وعليها ريش من الأعلى مع قصص تلوين، كانت بسمتها تملأ وجهها، تحب التعامل مع الأطفال، تأسرها براءة الصغار وضحكاتهم حتى رغم الألم الذي يشعرونه، فرِحت لتردد نسيم تلك الطفلة الجميلة لعيادتها، رغم ملابسها التي توحي بأن حالتها سيئة نوعاً ما، ولكن ذلك لا يهمها، هي إنسانة تلفتها الروح لا القشور، هكذا إيناس منذ صغرها، كانت تعطي طعامها لأي طفلٍ جائعٍ في المدرسة على أن تأكله هي بنفسها، نظرت إلى انعكاسها في المرآة، عدلت من وضع حجابها الوردي الذي يحيط بوجهها الحنطي، ثم ارتدت مريولها الأبيض فوق عباءتها بنية

اللون، وأرسلت قبلة لنفسها في المرآة، إنها سعيدة دون سبب واضح، ربما فقط لمجيء الأطفال اليوم، لأن ذلك يجعلها فتاة خفيفة جداً على عكس الثقل الذي تشعر به أحياناً في أوقات العمل. براءة الصغار وضحكاتهم حتى رغم الألم الذي يشعرونه، فرِحت لتردد نسيم تلك الطفلة الجميلة لعيادتها، رغم ملابسها التي توحي بأن حالتها سيئة نوعاً ما، ولكن ذلك لا يهمها، هي إنسانة تلفتها الروح لا القشور، هكذا إيناس منذ صغرها، كانت تعطي طعامها لأي طفلٍ جائعٍ في المدرسة على أن تأكله هي بنفسها، نظرت إلى انعكاسها في المرآة، عدلت من وضع حجابها الوردي الذي يحيط بوجهها الأبيض، ثم ارتدت مريولها الأبيض فوق عباءتها بنية اللون، وأرسلت قبلة لنفسها في المرآة، إنها سعيدة دون سبب واضح، ربما فقط لمجيء الأطفال اليوم، لأن ذلك يجعلها فتاة خفيفة جداً على عكس الثقل الذي تشعر به أحياناً في أوقات العمل مع الكبار.

كانت شفق وليان تمشيان وأيديهما متشابكة، أردفت ليان:

_أتمنى أن آكل برميلٌ من الشوكولاتة دون أن أتألم هكذا، أتصدقين بأنني فقدت الكثير من الوزن بسبب هذا.

_هوني عليك يا رفيقة، ستتعافين قريباً.

_آمل ذلك، وأنت أيضاً إن شاء الله، أتمنى لو أبقى معك عند الطبيبة ولكن سأوصلك وأعود للمنزل، أمي متعبة هذه الأيام.
_لا بأس يا ليان، أتعلمين؟ أتمنى لو أنني على الأقل أعرف ما بي، أتلمس موضع ألمي بيدي وآخذ حبة دواء فأرتاح بعد أخذ غفوة قصيرة، هذا الألم الداخلي غير المفهوم لا يطاق يا رفيقة.
_شفق يا غاليتي، كلها ابتلاءات وآلام في النهاية، هذا الألم رحمة وتكفير ذنوب، وبالتأكيد له حكمة وتوقيت ثم سينتهي وتشفين، كلما أشتد الظلام حلكة فذلك يعني أن انقشاعه قد اقترب، أليس الصبح بقريب؟
شدت شفق على يديها تُومأ بالإيجاب.
دخلتا المستشفى معاً واتجهتا نحو عيادة إيناس، دلفت ليان للداخل، وجلست شفق في غرفة الانتظار، وأخرجت هاتفها لتكمل قراءة الرواية الالكترونية ليتما تنتهي صديقتها، ألقت إحداهن التحية عليها، رفعت عينيها إليها، لترى شابة متوسطة الطول نحيلة القوام، ترتدي عباءة سوداء وحجاباً أبيضاً، وتملك عينيان عسليتان مبتسمتان، تمسك بيد طفلة صغيرة لطيفة الملامح تطالع شفق بعينين

فضوليتين بلون عيني والداتها على ما يبدو، ردت شفق التحية وعدلت من جلستها لتجلسا لجانبها، سألت الطفلة:

_ما اسمكِ يا جميلة؟

_أميرة.

مسحت على رأسها قائلة:

_إنكِ أميرةً فعلاً، ثم نظرت للشابة قائلة:

_حفظها الله لك، والدتها؟

فابتسمت مجيبة:

_نعم أمها، سلمك الله، الطبيبة في الداخل أم لم تأتي بعد؟

_بلى في الداخل ولديها مريضة الآن.

_حسناً، شكراً لك.

عادت شفق لإكمال قراءتها.

سألتها أميرة:

_ماذا تفعلين يا خالة؟

_اقرأ يا حلوتي، هل تجيدين القراءة؟

هزت رأسها نافية، أضافت الأم:

_لا تزال في الصف الأول، لكنها لا تستجيب للتعليم كـبقية الأطفال، لا أدري ما السبب!

_ربما ظروف المدرسة، أو المعلمة، في هذه المرحلة يحتاج الطفل عناية مكثفة، وأن نزرع في نفسه حب العلم قبل أن نعلّمه.

_هل تعرفين معلمة خاصة بإمكانها أن تدّرس أميرة عندنا في المنزل؟

فكرت قليلاً ثم قالت:

_أنا أدرس في الجامعة سأحاول أن أجد لك معلمة مناسبة، ستكون معلمة شغوفة في بداية مسيرتها، هل لكِ أن تعطيني رقم هاتفك؟

ابتسمت الأخرى وراحت تناولها الرقم.

دلف شاب بطول فاره، يرتدي ملابس عادية مرتبة، أجعد الشعر بلون كستنائي وعينان كذلك، ومعه طفلة صغيرة تبدو بعمر أميرة أيضاً، ترتدي بيجامة حمراء اللون، شعرها قصير يصل أذنها، وابتسامتها واسعة، جلسا في الجهة المقابلة، راح الشاب يتذمر بينه

وبين نفسه لماذا هذا الازدحام، المرة السابقة لم يكن هناك سواهما، يأمل ألا يتأخر هنا، كي يستطيع العودة لعمله في الوقت المناسب.
فُتح الباب وخرجت ليان تضع كفها على خدها، وتشكر الطبيبة التي تقف وراءها، نظرت إيناس للجميع قائلة:
_أهلاً وسهلاً، دور من الآن؟.
نهضت شفق إلى ليان مودعة حنين التي تعرفت عليها لتوها، داعية لها بسلامة عينا طفلتها، هكذا هنّ الفتيات يتعرفن على بعضهن سريعاً وفي أي مكان كان.
أردف الشاب:
_جيد أنها كانت هنا مرافقة، ظننتها مريضة أيضاً.
ابتسمت إيناس تناجي الله في سرها ألا يكثر الحديث كالمرة السابقة، هذا الشاب إذاعة كاملة، لسانه لا يستقر في حلقه أبداً.
قالت:
_أستاذ منير، تفضل أنت والصغيرة للداخل.
_رغم أني على عجلة من أمري، ولكنني لن أكون كـ تلك الطرفة التي تصف حال الشعب في العيادة حينما "يقول آخر شخص: _ دعني أدخل قبلك فأنا اتألم، ليقول صاحب الدور الأول:

_أنت تتألم أما أنا فجئت لأشتري فلافل"

ثم نظر لحنين وابنتها قائلاً:

_تفضلي يا آنسة دورك قبلي نحن لا نشتري الفلافل هنا.

أردفت إيناس وهي تضع يدها على رأسها:

_من فضلك أستاذ منير لا داعي لكثرة الكلام، لي مع السيدة عمل آخر، تفضلا وسأتبعكما بعد قليل.

رد ضاحكاً:

_أشعر بأنك تهددين، ولكن حكم القوي على الضعيف كما يقولون سندخل.

تحدثت إيناس إلى حنين بعد أن سلمت عليها وأوصلتها لعيادة طبيبة العيون، وعادت لعيادتها، ألقت التحية فردها منير ثم قال:

_صدقاً حينما رأيت كل أولئك شعرت بأنني في محل لشراء الفلافل، بالمناسبة أحدثك بعد خبرة في مجال ذلك العمل.

طلبت إيناس من الطفلة الجلوس على المقعد وبأن تفتح فمها وتسند رأسها للخلف.

أكمل منير:

_أحاول أن أبدد الصمت وليبدو الجو مرحاً لأجل نسيم، فتفاعلي معي قليلاً حضرة الطبيبة لتقليل التوتر.

_شكراً لك، ولكني لست متوترة وأحب العمل مع الأطفال، وابنتك لطيفة وشجاعة صحيح يا نسيم؟

أجابت الصغيرة بنعم، وضحك هو متابعاً:

_ليست ابنتي، هي أختي، حسناً نعود لموضوعنا، أتعلمين أنا وأنتِ نعمل في مجال واحد.

رفعت ناظريها إليه، فقال:

_ كلانا يرتدي مريولاً أثناء العمل، وأيضاً كلانا يعمل فيما يخدم فم الإنسان، ولكنني أفسد له أسنانه وأنت تصلحينها بالمقابل.

ابتسمت لا شعورياً وهي تتابع عملها، أكمل:

_أرأيتِ؟ ها أنا أجلب لكِ الزبائن حضرة الطبيبة، المجتمع متكامل، ولكل منا فيه دورٌ مختلف، وعليه فإن بائع الفلافل لا يقل أهمية عن الطبيب.

ابتسمت مجدداً قائلة:

صحيح، وشكراً لك على دروس التنمية البشرية أستاذ منير، بالمناسبة لماذا لا تترك العمل وتبدأ في التأليف؟

_أتسخرين مني؟

_لا، ولكنه عملٌ يناسبك، ما شاء الله كلماتك نبعٌ لا ينضب، ستنجح في وقت قياسي.

قالت ذلك ثم ناولت نسيم قطعة قطن معقمة بابتسامة حنونة قائلة:

_هل تؤلمك؟

_قليلاً.

ثم نظرت لأخيها وقالت:

_سأكون على ما يرام ولن أبكي.

نظرت إيناس بدورها لمنير بعد أن غسلت يديها مردفة:

_أتخيفها؟! دعها تبكي حتى الكبار يتألمون عند خلع أسنانهم.

_لا، هناك وعدٌ بيننا.

اتجهت لمكتبها وأحضرت القلم ذا الريش والقصص الملونة وأعطتها للصغيرة، فارتسمت بسمة واسعة على وجهها وشكرتها بكل حب.

ابتسم منير قائلاً:

ـجزاكِ الله خيراً حضرة الطبيبة، لا زال هناك سنٌ آخر وبعض التسوس في أضراسها، لو جلبت هدية عند كل جلسة ستغلقين العيادة.

ضحكت مجيبة:

ـلن يُفلس بائع الفلافل لو وزّع بعض الأقراص كضيافة لزبائنه صحيح؟!

وبكيتَ كما لم تفعل من قبل، بكيتَ من كل الحواس، بكيت كأنك لا تبكي بل تذوب دفعة واحدة... وتمطر!

لقائله.

تفارقت الصديقتان عند بناء عيادة الطبيبة، قالت ليان قبل ذهابها:

ـأشعر بأننا في مرحلة الشيخوخة وليس في عمر الزهور، من عيادة إلى عيادة، اللهم لا شفاء إلا شفاؤك، وداعاً يا صديقتي.

دلفت شفق للداخل فوجدت براء هناك قبلها، سلّمت عليه وجلست قبالته، سألها عن حالها، فأجابت:

_بخير الحمد لله، كيف حالك أنت؟

_بخير لو كنتِ كذلك، لم تأتي الطبيبة بعد، هناك بائع مثلجات قريب من هنا، ما رأيك أن نذهب إليه ليتما تصل؟

أردفت السكرتيرة:

_ستصل قريباً، اها ها قد أقبلت.

دخلت سماح بخطواتها الواثقة والبسمة تزين وجهها، وطلبت من شفق المجيئ معها للداخل، ابتسمت الأخرى بدورها وتبعتها مغلقة الباب وراءها، قالت سماح:

_ هذا هو براء؟

_نعم هو.

_حدثيني يا شفق، ما بك؟ تبدين متوترة، اسمعي أنا معكِ في أي شيء، وبالطبع سأحافظ على خصوصيتك، هل هناك أي شيء لا تريدين أن يعرفه عنكِ؟

_لا بأس، أريده أن يكون على علم بكل شيء، فالشعور بالذنب اتجاهه يكاد يقتلني، مع أنني أكره أن يعلم عن حالي الضعيف،

وأخشى ردة فعله أو رؤية الشفقة في عينيه اتجاهي، ولكن هذا أفضل.

_بالمناسبة هذه المرة الأولى التي تتحدثين فيها عن هذا الشعور، لدينا جلسة مطوّلة لأجل ذلك اتفقنا؟

_نعم.

_حسناً، أخرجي واطلبي من براء الدخول من فضلك.

_ألا أستطيع البقاء معكما؟

_لا، هكذا أفضل عزيزتي.

خرجت شفق وبعد قليل دلف براء بقامته الطويلة وخطواته الثابتة، يرتدي قميص نيلي اللون مع بنطال رمادي، ألقى التحية وجلس قبالة الطبيبة قائلاً:

_أنا براء خاطب شفق، أريد الاطمئنان على حالتها حضرة الطبيبة.

_أهلاً، لن أتعبك بكثرة الكلام عندي ملف مختصر لحالة شفق سأعطيك إياه لتراه، ثم إني لم أتوصل لشيءٍ معينٍ بعد، سوى أن نفسيتها متعبة من أسلوب التربية والظروف التي عاشتها.

ارتسم الاستغراب على وجهه، لماذا قد تكون شفق قد عاشت طفولة صعبة؟ سألها عن ذلك، أخرجت الملف من الدرج وناولته إياه قائلة:

_ستعرف الآن كل شيء.

ما إن وقعت عيناه على اسمها الثلاثي أعلى الملف (شفق عامر بركات) حتى فار الدم في عروقه واكتسى الغضب ملامحه، قال بنبرة حادة:

_عامر بركات والد شفق؟! هل هو ذاته... أ أيعقل؟!

ثم صمت وأخذ يقرأ الملف بأيدٍ مرتجفة.

_هكذا إذن هو بذاته!

سألته الطبيبة عن تغير حاله وما الخطب، فنهض غاضباً ورمى الملف أرضاً، وما إن خرج حتى راح يصرخ في وجه شفق:

_هل تعرفين بأن والدك دمّر حياة الكثيرين، وأنا منهم.

هل تعرفين بأنني فقدت والدي بسببه؟ كانت أمنيتي هي تدمير حياته ثم هدأت لعلمي بوفاته الجنونية بجرعة زائدة من ذلك السم، والآن ماذا؟ اكتشف بأن الفتاة التي أحببتها ابنته!

ضرب جبينه بيده بجنون، ثم قال:

_الآن أدركت سبب شعور والدتي بعدم الارتياح اتجاهكم، في كل المرات التي كذبت بها شعور أمي ندمت على ذلك.

نظر إليها متابعاً كلامه:

_تحملت ما فيه الكفاية من عائلتكم، أظن بأننا بالفعل وصلنا لطريق مسدود.

قاطعته الطبيبة التي خرجت إثر صراخه بحدة، وكانت تتابع الأمر:

_أ.براء من فضلك أخفض صوتك واخرج من هنا حالاً!

خرج بعصبية دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

كانت ملامح الصدمة تحتل وجه شفق، اقتربت الطبيبة منها بهدوء وجلست بجانبها حاضنة إياها مردفة:

_سيكون كل شيء على ما يرام.

أردفت شفق بصوت واهن:

_كيف؟ وكلما فتحت نافذة ليدلف منها النور إلى قلبي تدلف النيران؟!

_لا تقلقي يا شفق، أنت الآن في طريقك للعلاج والألم جزء من العلاج يا شفق، هيا فرغي ما يعتمل في صدرك إثر هذا الموقف.

_لا أستطيع!

_بلى تستطيعين، تذكري كل ما يؤلمك، وكل ما حبسته في صدرك عوضاً على أن تصرخي به وأخرجيه.
بقايا المواقف وتراكماتها تملأ قلبك فتفقدين قدرة التعبير عنها كلها، أبكي وسترتاحين.

دلف مازن الذي جاء قبل الوقت الذي حدده مع شفق بقليل ليتحدث إلى براء، فذهل لرؤية شفق بأحضان الطبيبة شاحبة اللون، ذابلة العينين، أقبل بخوف عليهما يحاول فهم ما يجري، رفعت شفق عينيها إليه، ونهضت نحوه بوهن، مردفة بنبرة شجية:
_ كان شعوري صادقاً، ولطالما كان كذلك.
تقطع قلب مازن وهو ينظر إليها بعيونٍ ملؤها الحب والخوف، تقف قبالته بتلك الحالة، تابعت وهي تضم كفيها لصدرها وعيناها تتلألأ بالدموع:
_مازن أريد...
ابتعلت ريقها، وأخذت أنفاساً متتابعة، وأكملت بصوت متحشرجٍ مغطسٍ بالمرارة:
_أريد والدي الآن!.

ثم وضعت كفيها على عينيها وانهارت بنوبة بكاء غزير، دمعت عينا مازن وهو يقف أمامها الألم يعتصر روحه، يريد أن يقترب إليها ويضمها علّها تهدأ، أن يمسح دموعها بيديه، ويقبّل جبينها مطمأناً إياها بأنها ستكون بخير، وبأنه سيكون بجانبها دائماً، يدعو الله بسرّه كثيراً أن يتغمد قلبها برحمته الواسعة، وأن يرزقه إياها ويريحه من هذا العذاب، نظر للطبيبة نظرة ضائعة متسائلة عمَّ حدث.

اقتربت الطبيبة من شفق وضمتها إليها بعطف، ثم نظرت لمازن قائلة:
_لا تقلق، شفق ستخبرك بكل شيء، هل لك أن تأخذنا لسيارتك؟
أومأ لها ومضى خارج العيادة وتعبته الطبيبة ممسكة بشفق وكانت قد هدأت قليلاً، أجلستها في المقعد الأمامي لجانب مازن، وأخذت لنفسها مقعداً في الخلف قائلة:
_أ.مازن، خذنا لمكانٍ هادئٍ ذا هواءٍ نقي بعد إذنك.
انطلق مازن دون أن ينبس بكلمة، رفعت شفق رأسها تبتلع شهقاتها إثر البكاء، نظرت لمازن والاحمرار يكسو وجهها وعيناها، ناولها عدة مناديل، ونظر لهاتفه الذي أعلن وصول رسالة، فتحها فكانت من الطبيبة، كاتبة له بعض الأسئلة، طالبة منه طرحها على شفق

حتى تستخرج كل ما في دواخلها من كتمان وتعبر عنه لترتاح، تردد قليلاً فبادلته الطبيبة النظر في المرآة أي اطمئن وافعل ما طلبته منك.

ناداها بصوت ملؤه الرجاء:

_شفق.

عاودت البكاء على نحو أخف مردفة:

_نعم؟

_ماذا حدث قبل قليل يا شفق؟

_منذ الصباح والقلق ينهش روحي، كنت أريد أحداً لجانبي علني أطمئن فلم أجد، كذبت شعوري، ولكن نوبة غضب براء علي بددت أماني وجعلته يتلاشى كلياً، شعرت بأنني مكسورة الجناح ولا أحد لجانبي.

مسحت دموعها بكفها الناعمة وتابعت بنبرة ألم دفين:

_دائماً ما تأتيني الصفعة من اليد التي تمنيت منها أن تربت على كتفي، يبدو أن مشاكل والدي تلاحقني حتى بعد موته.

صمتت قليلاً وأكملت:

ـولكن رغم كل شيء أنا بحاجته الآن، أريد والدي يا مازن خذني إليه.

ثم غرقت في أمطار بكاءها من جديد.

لم يكن فقد براء ما يؤلمها، لكنها فقدت الشعور بالأمان، وكان هذا كافياً ليدفعها للانهيار متذكرة كل ماضيها، باكيةً على كل شيء كأنها لم تبكي منذ أمد بعيد، كانت روحها جافة جداً، وبحاجة شديدة لتلك الدموع لترويها ولتطفئ نيران فؤادها المتعب.

اشترت كوب حليب دافئ، وراحت تمشي بتباطؤ، عائدة للمنزل، وهي تتأمل جمال السماء وتداخل ألوانها بلطف وانسجام مع غيومها الوردية التي تشبه غزل البنات، كم تحب هذا الشفق الأحمر الذي يزين السماء قبل الغروب، استرعى انتباهها سربٌ من الطيور المهاجرة تحلق في السماء مصدرة صوتاً جماعياً جميلاً، رشفت القليل من الحليب وعادت تحملق في السماء التي سحرت ناظريها، يا الله ما أجملها!، تمنى لو أنها طيراً صغيراً يعيش ضمن سرب يحبه هكذا وينتمي إليه، لا يعيش سوى في مكانٍ دافئٍ ، تكره فكرة أن البرد قادم قريباً جداً، فهي تقضي معظم الشتاء مريضة في الفراش، انتشلها رنين الهاتف من أفكارها:

_أهلاً داليا كيف حالك؟

_أنا سعيدة جداً جداً، الأرض لا تسعني، أريد رؤيتك حالاً.

_حسناً، ماذا ستعطيني لو وافقت على لقاءك؟

ضحكت داليا قائلة:

_فلافل ما رأيك؟

انتقلت عدوى الضحك للأخرى متذكرة منير، كان للفظ الفلافل قصة عند كلٍّ منهما، أردفت إيناس:

_ما قصتكم مع هذه الأكلة اليوم؟! صحيح أو لستِ لا تحبينها؟

_حينما يشعر الإنسان بالسعادة، يكون قادراً على منح الحب لأي شيء مهما كان، ويستشعر لذة كل الأشياء، حتى الطعام الذي لا يحبه.

_أشعر أن هناك قصةً ما، حسناً تعالي إلينا، أمي تعدّ البطاطا بالفرن، هيا أسرعي.

وفصلت الخط دون انتظار رد داليا، متذمرة من تفويتها لغروب الشمس بسبب تلك المكالمة.

بعد الغداء شكرت داليا خالتها واتجهت مع إيناس للمطبخ لتغسلا الأطباق معاً، صاحت إيناس:

_جهزي لنا الشاي الأخضر ليتما أغسل الأطباق، وحدثيني عم جرى.

ابتسمت داليا وأغلقت الباب بهدوء مردفة:

_أخشى أن يسمعنا أحد، ثم ألا تملين هذا الشاي؟ صدقيني إنه لا يفعل شيئاً داخل معدتك سوى أنه يستغيث من كثرة الطعام الذي تطالبينه بأن يحرقه.

_أخبريني كيف كان يومك يا شريرة؟

_لقد قضيت يوماً ممتعاً، ذهبت مع علي إلى بيت العجوز أم خالد و.....

قاطعتها إيناس بانفعال وقد سقطت إحدى الكؤوس من يديها:

_يا حمقاء كيف تفعلين ذلك؟ ألا تخافين! تخيلي أنه يشكل عصابة مع تلك العجوز، ماذا لو تم اختطافك؟.

_إيناس بربكِ توقفي عن تخيلاتك المليئة بالأكشن والدراما، الحياة أبسط من كل هذا، ثم إنها إنسانة طيبة جداً وقد أحبتني، أتعلمين المسكينة تعيش وحدها.

_آه يا لها من مسكينة، أحضريها لتعيش معنا مرةً واحدة!.

غطى الانزعاج ملامح داليا بالكامل، وكادت تجن هي تطالبها بأن تخفض صوتها، والأخرى تُخرج أعلى ما لديها في طبقاتها الصوتية، ما جعلها تصمت وتحبس بقية كلماتها، فاعتذرت إيناس وطلبت منها المتابعة، فتابعت بعد إلحاح عديد، تحكي لها عن جمال يومها وجمال الجو الريفي، وعن هواءه الذي يفتح الشهية، وكيف تناولت الفلافل بشهية معهم رغم أنها لا تحبها.

*****

"السلام عليك أبتاه..

جالسة وحدي في الغرفة، أكتب إليك بملأ ما في القلب من حبٍّ وشجن وحنين، طلبت منهم أن أبقى وحيدة لبعض الوقت، وافقوا على مضض بعد إخراج كل الأدوات الحادة من الغرفة خشيةً عليّ مني، ممَ قد أفعله بنفسي، أخرجوا كل الأدوات الحادة بنظرهم،

لا يعرفون أن القلم إحداها، وأنني إذ أكتب أفتح جراحي من جديد.

بعد انهياري ليلة البارحة، وطلبي المتكرر لمجيئك، أخبرتني الطبيبة بأنه علي أن أكتب إليك كل ما أريد قوله لك، أن أتخيلك أمامي وأتكلم كتابةً ثم أرسلها إليها، فأرتاح وكأنني أرسلتها لك أنت، يا أبتي أخبرهم أن الكتابة لا تكفي، وأن الألم في قلبي تعجز أمامه هذه الأبجدية الضئيلة، أحتاج قربك، أن أرتمي في أحضانك لتربت

على رأسي بكفك الحنونة وتخبرني بأنك لجانبي وبأنه لا شيء يستحق دموعي، لم يكسرني رحيلك بقدر ما كسرني أنك رحلت دون أن أعيش معك كابنة وأبيها، أنني لم أضمك يوماً وأُخبرك بأنني أحبك كثيراً، أنني لم أرَ نظرة الفخر في مقلتيك اتجاهي، يؤلمني أنك آذيتني بحياك ومماتك، وأنني لم أعش الأمان في حضورك ولا في غيابك."

(توقفت قليلاً تمسح دمعاتها الحارة، أعادت خصلاتها وراء أذنها، وتنفست بعمق، ثم تابعت).

"كنت أريدك معي لتوقف صراخ براء نحوي، ولتقل له بأن ابنتك لا أحد يتحدث إليها بتلك الطريقة.

هو أخبرني بأنه غير مستعد ليخسرني، وبأنه واثقٌ بأنني فتاة تستحق أن يحبها العالم كله، ولكن يبدو أن ثقته بمشاعر أمه نحوي كانت الأقوى!، لماذا يتحدث الناس بأشياءٍ فوق طاقتهم، أو بأشياء لا يعنونها تماماً؟ ألا يعرفون أن الغريق يتمسك بقشة رغم معرفته بكونها قشة؟! كنت رافضة فكرة الزواج، ولكن كان يروقني بأن هناك شخصٌ يتمسك بي بتلك الطريقة، ممَّ جعلني أتقبل الفكرة، لكن على ما يبدو أن الجميع يحبك بنسختك الجيدة التي يرونها، وما إن يتبدى لهم شيء من سوئك رفضوك، رغم أن الذنب ليس ذنبي، لقد قال لي بين جنون كلماته: "مادام الوالد قد توفى بحالة جنونية، لا عجب إذن أن الفتاة مجنونة كأبيها".

أغضبني لحديثه عنك بتلك الطريقة، كنت أود أن أخبره بأن أبي ليس مجنوناً، إنه ضحية حبوب سامة كانت تُغيّب وعيه، وتجعل منه شخصاً آخراً غير الإنسان الطيّب الذي نعرفه، ولكن صوتي اختفى، ماتت الكلمات على عتبات فمي دون أن تُنطق، وانتهى الموقف دون أن ينتهي كعادة المواقف التي تجرحني!.

وداعاً الآن، فالدموع تنهال على خديّ، وأوراقي، وطاولتي، وقلبي.

سامحك الله وغفر لك ورحمك.

_ابنتك التي تتوق لسماع هذه الكلمة منك.

(بعد عدة أسابيع)

كانت جيوش الغيوم تُقبل وتتجمع طوال الليل، ودوي الرعد يُوحي بعاصفة هوجاء، ومع ساعات الصباح الأولى أذن الله للسماء أن تبكي دموعها الغزيرة، كانت تتسارع شيئاً فشيئاً، لتعلن عودة الشتاء وبقوة، في ذلك الصباح كانت مغادرة السرير تحتاج جهاداً كبيراً، استيقظت أمل تبكي لا تود الذهاب للمدرسة، تعاطفت معها والداتها وتركتها تنام بهناء، قامت شفق بنشاط ذلك الصباح كتبت في مذكراتها:

(تبكي الغيوم دموعها بقوة، فتغسل قلبي مما فيه، تغسل أفكاري، وتجعل اليأس ينجلي بعيداً، تبكي السماء فتحيا روحي وتحيا الأرض،

وتحيا كل المشاعر الجميلة عندما تُسقى بمائها، ضجيج الطقس يرتب فوضاك فتهدأ، تنطلق الدعوات إلى الأحبة بكل دفء، ذلك أنك عندما تُحب، تذكرك كل الأشياء الجميلة بذلك الحب، يأتي المطر أو كما يقال له الغيث، فيُغيث قلوبنا ويجدد أملنا ويُحيي إيماننا، وبالفعل يُحيينا من جديد.

_شفق).

ثم وقفت هي وبدور تنتظران انتهاء مازن من صلاته ليوصلهما، نزل الجميع بعدها بقليل، اشترى مازن لهم كؤوس حليبٍ ساخنة، وانطلقوا في السيارة.

كانت شفق تتأمل حبات المطر اللؤلؤية التي تتسابق لترتطم بحواف زجاج النافذة، سألتها بدور التي كانت تجلس بجانبها وتُمسك كأس الحليب بكلتا يديها تستمد بعض الدفء منه:

_أين أنتِ شاردة؟

_تذكرتُ شيئاً، هل لي أن استشريكما به؟

أومأت بدور وأكّد مازن بـ نعم، تابعت:

_منذ فترة كنت عند طبيبة الأسنان مع ليان، كانت هناك امرأة تبحث عن معلمة لطفلتها التي في الصف الأول، ووعدتها بأن ابحث

لها عن معلمة، ونسيت الأمر، تذكرت ذلك عند رؤية رقم هاتفها البارحة، ما رأيكما أن أدرّسها أنا؟.

_أرى أنه من الأفضل ألا تفعلي، الأطفال يُصيبون الإنسان بالانهيار العصبي خاصةً في بداية دراستهم، ولو لم تكن صعبة الفهم لتولت أمها ذلك.

_لكنني أحتاج ذلك لأبدأ شيئاً جديداً، أشعر أن حياتي راكدة، ثم إن التجربة ستُكسبني خبرة تلزمني مع الأيام، ما رأيك مازن؟

_القرار لكِ يا شفق، ثم إن عليك أن تسألي والدتك وعمك في هذا الشأن.

_أمي أعرف كيف أقنعها، تبقى عمي حدثه بهذا عوضاً عني يا مازن.

*****

استيقظت داليا تفتح عينيها بصعوبة، تبحث عن الهاتف الذي يغرق في الفراش مع تحركاتها فتُضيعه كل صباح كالعادة، عثرت عليه أخيراً، تفقدت الساعة كان هناك ساعة ونصف لبدأ دوامها، دلفت لتطبيق الفيسبوك تلقي نظرة استطلاعية على أحوال الناس، ثم ضغطت على زر البحث لتظهر لها صفحة علي المحفوظة هناك،

ضغطة أخرى وبدأت ترى هل من جديد، فوجئت بمنشور يحوي مقطع فيديو مكتوب أعلاه (أأنساكِ؟ وأيموجي حزين)، بدأت أفكارها تُأرجحها يمنة ويسرى وراحت تتساءل: من هذه التي لم ينساها للآن؟ ألستِ طبيبته ويحق لي أن أعلم!

فكرت قليلاً، لا تدري أيحق لها أن تتدخل وتُقحم نفسها لهذا الحدّ، أم لا؟ لكن فضولها وربما غيرتها دفعتها لتشغيل ذلك المقطع لترى محتواه، فبدأ:

ريحانة القلب المهفهف... من حنانك زوديني

عيناك توقد في فؤادي... قصة الماضي الحزين

عيناكِ رائعتان مثل فراشة... حطت على أوراق زنبقة

وفاضت بالحنين... عيناكِ لا أدري لماذا

تزعجان هدوء قلبي... تفتحان بلا مقاومة حصوني

قد كنت أزعمت الرحيل... إلى المقابر صامتاً

من غير شوشرة ففيمَ ترجعيني

أوقفت داليا المقطع وبعض الغضب يخالجها، أبعدت الغطاء عنها وهي تدندن:

_عيناكِ رائعتان... الله .. الله!، أكاد أجن يا ربي، من هذه الرائعة، القنبلة، التي يحن إليها في ليالي الشتاء الطويلة الباردة، لملمت شعرها المبعثر والتقطت ملقط الشعر المعلق على الستارة بجانب السرير كالعادة لتجمعه فيه، كان الانفعال قد طيّر بقايا النوم العالقة في جفنيها وأنساها البرد، تنهدت وضغطت لإكمال المقطع، تريد معرفة ما نهايته، ما المفاجآت التي ستسمعها فيه، ثم إنه كان طالباً علمياً لم تكن تدري بأنه يميل للأدب والقصائد، آهٍ يا هذه الدنيا كم فيكِ من أمورٍ غير متوقعة، فاتها القليل وهي شاردة، تابعت معه عند وصوله لما يلي:

أأنساكِ وليلٌ في مخيلتي تسافر فيه عيناكِ

أأنساكِ...

أجيبيني فإن البعد والحرمان شيءٌ فوق إدراكي

وهل أنسى خيوط الشمس تلفح خدكِ الباكي

وهل أنساكِ يا أماه كيف وقلبي مأواكِ

أغمضت عينيها ثم فتحتهما بسرعة، مهلاً ماذا قال لتوه؟ أماه؟! ضربت وجهها بكفها مستوعبة الأمر، بعد أن عادت بالمقطع قليلاً لتتأكد، شعرت بالأسى لأجله، يشتاق لأمه ويعيش وحيداً في أيامٍ

ليلها طويلٌ لا ينتهي، لا سيما أن أشباح الاكتئاب والكوابيس تتربص به، دمعت عيناها، عادت لتتمدد على السرير بعد زوال نوبة الانفعال التي أصابتها، أكملت بقية المقطع فقد راقت لها الكلمات مادامت للأم في نهاية الأمر، فهي أيضاً تشتاق لأمها البعيدة.

أحبكِ أينما تمضين عن عيني ألقاكِ

وطائر نورسٍ يشدو هنالك في أنين البحر

ملأ البحر أهواكِ

على الحيطان ترتسمين، وفي الأوراق تبتسمين

ومن أرض إلى أرض يرافقني مُحيّاكِ

وبين الفجر والإشراق تنبعثين من روحي

فلا أدري إذا ما كنتِ امرأة أم الإصباح غناكِ

أأنساكِ؟!*

*أنشودة موجودة بصوت: عمار صرصر وموسى مصطفى.

المُنعطفات هي التي تَصنعنا.. الطُرق السالكة لا تؤدّي إلى شَيء.

لقائلها

بعد الظهر دخلت إيناس للعيادة والطفلة نسيم كانت بانتظارها، ألقت التحية، وأمسكت بيد الطفلة ودلفتا للداخل، سألتها إيناس:

_كيف حالك يا جميلة؟، هل تأخرت عليكِ؟

_بخير الحمد لله، أتيت منذ قليل فحسب، منير قال لي أنه لن يتأخر.

_لا مشكلة يا حلوتي.

قالتها بعد أن وضعت حقيبتها جانباً، وشرعت ترتدي مريولها، ثم تابعت:

_لماذا لم تأتي الأسبوع الماضي يا نسيم؟

_لم يكن منير يملك المال، قد دفعه كله للإيجار.

_كم فردٌ أنتم بالعائلة؟

_أنا ومنير فقط، بابا مريض لا يعمل، وماما تعمل في صنع المخللات وغيرها من المعلبات وتبيعها في السوق.

شعرت إيناس بغصة لأجلها، قالت مستغلة جمال طفولتها، فيوم الخميس تعالج الناس فيه بالمجان وبالتأكيد لن يقبل منير بنفسه لو أخبرته:

_أخبري أخاك بالمجيئ يوم الخميس اتفقنا؟

_حاضر، أرجوك دعي الألم يشفى سني تؤلمني.

_حينما تعودين للمنزل اطلبي ذلك من الله، ادعي الله بكل ما تحتاجينه.

_وهل الله سيسمعني ؟

_طبعاً يا حلوتي، هو يراكِ ويسمعكِ، وهو معكِ على الدوام، لذلك ادعيه فهو قادر على كل شيء، أما أنا فأحاول فقط تخفيف هذا الألم.

_حضرة الطبيبة، أنتِ طيبة كبائع الحلوى.

كانت إيناس مستمتعة بحديثها سألتها:

_ومن بائع الحلوى هذا؟

_كنت عائدة من المدرسة في يومٍ ما، وكنت جائعة جداً، مررت ببائع الحلوى والرائحة سحرتني لكنني لم أكن أحمل المال معي، وقفتُ أرى كمية الناس الكثيرة التي تشتري، فترك العم الطيب كل الناس وخرج نحوي، حاملاً معه قطعة كبيرة وساخنة من الحلوى اللذيذة، لا أنسَ طعمها للآن.

ابتسمت إيناس لبراءتها، تُفكر بمدى الرحمة التي يضعها الله في قلوب خلقه، وتحمد الله بأن الدنيا لا تزال بخير، طلبت من نسيم الجلوس كالعادة لتبدأ عملها.

بعد قليل أنهت عملها، وعقمت يديها وأعطت قطعة كعك للصغيرة قائلة:

_تفضلي، كليها عند وصولك للبيت، سيكون عندها الوقت مناسب لتناول الطعام.

_ولكن ألن أصاب بالتسوس ثانية؟ منير أحضر لي فرشاة أسنان وردية عليها سمكة صغيرة، ووعدته بالمقابل ألا أعود لتناول ما يضر أسناني.

ابتسمت إيناس لبراءتها ثم وضعت المزيد من الكعك في كيس بلاستيكي وناولتها إياها مردفة:

ـلا تقلقي، أنها مملحة بطعم الكمون ومفيدة ستحبينها.

شكرتها الصغيرة ومشتا معاً نحو الباب، عند خروجهم، رأت منير جالساً، وبين يديه كتّاب ما يقرأه، تنبّه لصوت الباب، فأغلق الكتّاب ووقف مُلقياً التحية وشاكراً لجهود الطبيبة، سألته إيناس:

ـماذا تقرأ أ.منير؟

ابتسم مجيباً:

ـكتّابٌ بعنوان: "فقدان التوازن الاجتماعي"، يبدو كتّاباً جيداً، استعرته قبل قليل بسعر جيد، بإمكانك أخذه بعدي، هناك مكتبة رائعة قريبة من هنا، بجانب قرطاسية النور، تبدو قديمة جداً عن بعد، لكنها تحوي كتباً قيمة، وتتيح الاستعارة بعكس بقية المكتبات.

ـجميلٌ جداً، شكراً لك.

ـكم تأمرين حضرة الطبيبة؟

أخبرته بالمبلغ وقد انتقصت منه بعد معرفتها بظروفهم الصعبة، لم تكن تعلم أن هناك شباباً تحمل بيتاً كاملاً وتعمل وتتعب، ورغم ذلك تقرأ وتسعى لإصلاح نفسها رغم صعوبة الظروف، استغرب من المبلغ فتعللت ببعض الأسباب علّه يقتنع، فأجاب:

_مؤسف بأن الطبيب يأتيه مبلغ كهذا.

ناولها المال وتابع:

_لأنصحك نصيحة أغلقي العيادة، وافتحي مشروع وقومي ببيع وجبات الحفلات كالفطائر وورق العنب وغيرها.

ضحكت إيناس:

_أ.منير تُشعرني وكأنني عجوز عندها تسعة أطفال وتريد إطعامهم، لا مشكلة عندي في ذلك، الحمد لله على عطاءه وكرمه.

_بالتأكيد لن تفعليها، لم تطحني نفسك بالدراسة، لتعودي للطحن مرة أخرى ولكن في المطبخ هذه المرة.

نظر لإيناس فكانت ترفع حاجباها استغراباً، تابع:

_لا تآخذينا على الإزعاج، ولكن سنبقى قليلاً حتى تهدأ الأمطار.

_لا عليك تحدث بما شئت، فهذا الجو يشعرني بالنعاس سأنام لو عمّ الصمت، وكما ترى العيادة فارغة اليوم.

_هل أخبركِ بآخر حكمةٍ توصلت إليها.

اومأت إيجاباً، فأردف قائلاً وهو ينقر بأصابعه فوق الكتاب:

_الحياة تطحن كلًّ منا بطريقة مختلفة، عن طريق الدراسة، العمل، ظروف الحياة، حتى العائلة قد تضغط على الشخص كثيراً، فيُعاد

تشكيله من جديد، لا أحد يكبر وينضج مجاناً، جميعنا دفعنا ثمناً ما لنصل إلى ما نحن عليه الآن، لذلك علينا الرضى.

ربما نحب ما كنّا عليه سابقاً، ونشعر بالحنين للماضي، ولكن بالطبع لو بقينا كما كنّا، لم نكن لنصبح كما نحن على هذا الحال.

أتعلمين نحن بطريقة ما نشبه أقراص الفلافل، تكون هشة وطرية جداً في البداية، ولكن بفضل إغراقها بالزيت على حرارة مرتفعة، تنضج وتصبح أقوى بكثير، بحيث أنها لو سقطت لن تنكسر، لكنها في حالتها الأولى ستنهار وتتبعثر لو تعرضت للسقوط، حرارة ضغوط الحياة صنعت منا أشخاصاً أقوياء، والشخص القوي له قبولٌ أكثر من الشخص الضعيف، جربي أن تضيفي شخصاً ما قرص فلافل غير مقلي بالتأكيد لن يقبل به، كذلك نحن لو بقينا ذوي نفسيات هشة، لن يتحملنا أحد، ولا حتى نحن لن نحتمل مواجهة الحياة لو بقينا على تلك الحال.

قالت:

_الخلاصة: بأنه على الرغم من اختلاف أساليب العيش التي نعيشها، إلا أن جميعنا قد مرّ بنفس المقلاة التي صقلت شخصيته.

ضحكا معاً، أخبرها ممازحاً:

_بدأتِ تفهمين فلسفتي.

أجابت:

_بالمناسبة ألم أخبرك بأنه عليك أن تترك العمل وتبدأ بتأليف كتابك الخاص.

_إنها هواية، لن تصلح أبداً لتطعمني خبزاً، ولكن في نهاية الأمر تبقى القراءة والكتابة هي المتنفس الوحيد الذي باستطاعته أن يخفف عنا ما نحن فيه.

*****

كانت تمشي بتمهل نحو عيادة الطبيبة سماح، وهي تستمتع بالأجواء الشتائية ورائحة الأرض المنعشة بعد هطول الأمطار، لا تفهم كيف لمجرد طقس كهذا أن يزرع فيها كل هذه السكينة، كانت تدعو بأن يُديم الله عليها السكينة ويروي قلبها راحةً واطمئناناً.

_مساء الخير د.سماح.

دلفت للعيادة كانت ترتدي فستاناً رمادياً فضفاضاً مع حجاب وردي فاتح اللون، ابتسمت الطبيبة ترد التحية ثم قالت:

_قرأت رسائلك، أخبريني يا شفق كيف وجدتي هذه الطريقة؟

_أن تكتب الأشياء الجارحة التي في داخلك كأن تخرج قطعة زجاج من داخل الجلد، مؤلمة جداً عند إخراجها، ولكنها مُريحة على المدى البعيد، قد أتوجع لو لمست مكان الألم بعد نزعه، ولكن مع الأيام سأراه وألمسه دون أن اتأثر فقد تطّهر ونظف الآن، تبقى فقط أن يلتئم.

ابتسمت سماح قائلة بلطف:

_تعبيرك مذهل، عليك أن تهتمي بموهبتك الكتابية يا شفق، اسمعي سنتحدث الآن عن شيء يدعى:"المواقف غير المنتهية"، أخبريني متى آخر مرة كتمتي بعض المشاعر في داخلك؟ أجيبي بغض النظر عن المرة الأخيرة.

أخبرتها عن موقف أم براء في المزرعة، وكيف أنها فقدت شعورها بالأشياء واستيقظت وهي على وشك جرح معصمها بالسكين، فسألتها عن شعورها في تلك الحالة، فأجابت:

_مرة واحدة، كنت أشعر بأنني أنفصل عن نفسي ولا أستطيع التحكم فيه، وفي معظم الأحيان المشابهة لا أشعر بأي شيء كما لو أنني نائمة تماماً، وعند استعادة وعيي لا أتذكر ما حدث.

_أظن أنني قد بدأت أفهم ما يحدث، المهم الآن هو أنكِ بخير، لنعود إلى ما أخبرتك عنه بدايةً، باختصار إن الأشياء التي تكتمينها داخلك بدل أن تعبري عنها تبقى في داخلك، وكذلك المواقف التي كانت تتطلب منك أن تفهمينها وتعطي ردة فعل اتجاهها وآثرتِ الصمت، هي أيضاً مواقف غير منتهية ولا تزال تقبع في داخلك، وتجعلك تتعاملين مع المواقف المشابهة مستقبلاً بنفس الطريقة السابقة، مثلاً أنتِ تنزعجين إن تدّخل أحدٌ ما بأمورك، ولو لم تكن نيته التحكم بك كما تظنين، ربما يكون سؤاله حباً لكِ أو خوفاً عليكِ، ولكن هناك موقف ما، لا يزال يتردد في عقلك ويجعلك تنظرين للعالم من خلاله، بينما الحقيقة لا تكون كذلك.

وكذلك في أول يوم جئت به إلى هنا، أخبرتني أنك شفقة وبأن الجميع يعاملك على ذلك الأساس، لكنك لست كذلك ولا أحد يشعر بذلك غيرك، إنها أفكارك التي تعكس لك ما تفكرين به لتظني أن الجميع يفكر بنفس الطريقة، هل تفهمينني؟.

براء كان يشعر بأنك إنسانة رائعة فعلاً وانفعاله الأخير لا يعني بأنه كان كاذباً، وشعورك بالذنب اتجاهه ذلك لأنك تنتقصين من

نفسك، بينما أنت رائعة وعليك أن تُصدقي ذلك، أنتِ فتاة تستحق الحياة والحب.

تستحق فرصة جديدة لتتصالح مع نفسها ومع العالم.

المهم أن تتخلصي من تلك المواقف وتراكماتها وتنهيها، وهناك عدة طرق لذلك اسمعي.

*****

_أهلاً مازن، نعم قد خرجت من عند الطبيبة للتو، لا بأس سأعود وحدي مشياً.

_أحضري لي معكِ حلوى للخبر الذي سأقوله لك هذا المساء.

_قل الآن ماذا هناك.

قالتها متصنعة الحماس، فأجاب:

_وافق والدي على أن تعملي بالتدريس.

_حقاً!.

_نعم بالفعل، عملت على إقناعه لأجلك لأنه رفض بدايةً.

_شكراً لك، سأحضر لك أفضل حلوى وعد.

ثم أوصاها بأن تنتبه لنفسها وانتهى الاتصال.

أسرعت بالاتصال إلى حنين لتخبرها، وهي تتمنى أن تكون هذه خطوة موفقة في حياتها.

"ألا إنَّ عين المرءِ عنوانُ قلبهِ
تُخبِّرُ عنْ أسرارهِ شاءَ أمْ أبى"

لقائله

كانت جالسة قرب المدفأة، تنزع جحابها المبتل ببطء، دلفت إيناس ببيجامتها الوردية المحببة إليها، والتي تُضيف لطولها طولاً إضافياً وتجعلها شبيهة النمر الوردي، وشعرها ينسدل خلف كتفيها بعشوائية، تحمل روايةً بين يديها، صاحت بانفعال:

_يا دودة الأرض لا تزالين جالسة هيا اخلعي المعطف أيضاً، وعلقيه قرب المدفأة ليجف بسرعة.

_أرأيتِ كمية التضحية والفداء لأجل رؤيتك؟!، ازدادت غزارة الأمطار فجأة، ابتلت بكلي.

نهضت داليا تُعلق معطفها ذا اللون النيلي وحجابها الأبيض، ورفعت شعرها للأعلى مشبكة إياه، ثم جلست تستمد الدفء وهي تضم كفيها لبعضهما وتحركهما معاً، قائلة:

_كيف حالكِ؟ أين الجميع؟.

_بخير، عزمتنا عمتي على الغداء، لكنني متعبة آثرت البقاء هنا، وطلبت منك المجيئ لنجلس معاً.

رمت الرواية جانباً، ونهضت تجدل خصلاتها على عجل مردفة وهي تجول بعينيها في المكان:

_داليا من فضلك رتبي الردهة، سالم قلبها رأساً على عقب قبل ذهابهم، وأضيفي بعض الأخشاب للمدفأة، سأذهب لأعد ما نأكله وأعود.

_حسناً.

أطعمت تلك النهمة التي تمضغ الأخشاب بألسنة النار، كانت الغرفة كبيرة، بيضاء ذات أثاث بسيط ومرتب، وعليها لوحات بآيات قرآنية، وساعة خشبية تُشير إلى الثالثة عصراً، ما كان يحتاج ترتيب هو تلك الألعاب المتناثرة هنا وهناك، أحضرت الصندوق الكبير وراحت تُخبأهم، قطعة وراء الأخرى.

عادت إيناس تحمل صينية تحوي كوبين من القهوة، مع قطع من الكيك والحلويات.

وضعتها على الطاولة، سألت:

_أين أنت شاردة يا داليا؟

وقفت حاملة بعض المكعبات واضعة إياها على الطاولة وأجابت:

_أتأمل هذه.

_ما الذي تتأمليه بها؟

قالتها باستغراب وهي تمد طبق الفنجان لداليا، وتتناول قضمة من الكيكة.

_هذه المكعبات تشبه طبيعة العلاقات نوعاً ما، إننا في النهاية لن نرتبط بقطعة تعجبنا ولا بالتي تشبهنا بل بالقطعة المناسبة لنا.

أخذت رشفة قهوة وتابعت:

_مثلاً فيما سبق كنت معجبة بأحمد الخطّاب، كنت أراه يشبهني كثيراً وهذا ما زاد إعجابي به بعد إعجابي بلوحاته، طريقة حديثه، أسلوبه، ربطه للأمور، والمرح الذي كان رفيقه الدائم مع بسمته المعتادة، جميع هذه الأمور يشترك بها كلانا، الفارق بيننا كان أنه رجل مشهور، بعيد، يمتلك وسامة أكثر مني بكثير، ومؤكد بأنني لست الوحيدة التي أعجبت به، لكنني أخطأت عدة مرات.

_فيما أخطأتِ؟

_أنا فتاة متهورة يا إيناس، اغمس نفسي في أشياءٍ أنا بغنى عنها، كنت معجبة برسمه، من الذي ضربني على رأسي وقال لي تابعي

صفحاته عبر وسائل التواصل؟، تابعته، زاد إعجابي وتعدى حده اللازم، أحببت كل ما يخصه، وبدأت انسج أحلاماً فوق السحاب، أحلاماً بعيدة عن النزول إلى الأرض، ولو نزلت ستتبخر، أو ستهطل مع دموع السماء لتشكل دموعاً في عيني، دموعاً تحكي للأرض عن أحلاماً فوق السماء، ما كان ينبغي لنا السعي وراءها ولا تمنيها.

_اهدئي، وتذوقي هذه الحلوى، ليست المشكلة بهذا الحجم، لم أفهم ما علاقة أحمد بقطع المكعبات، ثم إن أمره بقي حلماً أنا لا أفهم شيئاً.

_إعجابي بأحمد قادني إلى علي.

_وما شأن علي، هل أزعجك؟

_أفكاري متشابكة دعيني أرتبها بالحديث معك ولا تقاطعيني من فضلك.

_حسنا تفضلي.

تناولت قطعة حلوى صغيرة واستأنفت حديثها:

_ما الذي كنت سأجنيه من لقائي بأحمد؟ لم أكن أفكر بذلك وقتها، كنت أفكر فقط بأنني أريد رؤيته، وذلك أدى للقائي بعلي،

علي مختلفاً تماماً، يشبه ملامح أحمد لكنه لا يشبه شخصيته، ومع ذلك شعرت بشيء مختلف اتجاهه، ربما..

_ربما ماذا؟

_ربما كان حباً، أدركت أننا لا نحب من يشبهنا بل من يختلف عنا ويكمل نقصنا، علي هادئ، أنا صاخبة، هو متزن، أنا متسرعة، هو حزين وأنا مبتهجة، الكثير من الاختلافات وبالمقابل نتفق في الكثير أيضاً.

رشفت ثانية من قهوتها ونظرت للمدفأة، ثم للمكعبات وأكملت وهي تحركها أمامها:

_تسرعت هنا ثانية واندفعت نحوه، أردت رؤية أثري عليه، وإعادة البسمة إليه، كان عليّ معاملته كمريض وأنا طبيبته فحسب، لكنني طرت بأحلامي فوق السحاب أيضاً.

_لكن ذلك ليس ببعيد، أنت لا تعرفين ما موقف علي اتجاهك.

_بغض النظر عن موقفه، كان علي ألا أفكر بتلك الطريقة واستنزف طاقتي وعاطفتي في طريق لا أعرف نهايته، وإلى أين سيوصلني، انظري يا إيناس.

حركت المكعبات، أمسكت الزرقاء والخضراء قائلة:

_هذه مثلاً تشبهني، وهذه تشبه أحمد، إنهما متشابهتان جداً، ذات الفراغات أيضاً، لذلك هما لن يشكلا قطعة/علاقة معاً ولن يصلحا لذلك، بينما هذه (أحضرت القطعة الحمراء) لا تشبهها وتشكل معها قطعة واحدة جميلة، أما هذه _القطعة الصفراء_ غير مناسبة معها ولا تكمل الصورة لكنها تشكل معها قطعة ما.

تنهدت ثم أكملت:

_أنا أخاف من النصيب يا إيناس، أخاف من أن ارتبط بشخص يناسبني بطريقة ما، ولكنني في داخلي لا أملك حباً اتجاهه، والأسوأ أنني لا أدري ما مصيري مع علي، وكيف باستطاعتي التحكم بمشاعري نحوه، أستطيع تميّز من أحب من خلال اندلاع غيرتي عليه، وقد اكتشفت بأنني سأتألم كثيراً لو لم يكن عليٌّ لي.

_كيف اكتشفت ذلك يا داليا؟ ما بك اليوم؟

_سأحكي لكِ بالتفصيل، ولكن لا تستهيني بالأمر، خذي بيدي للطريق الصحيح، شجعيني يا إيناس لأكون أقوى.

كانت بدور مُتعبة وقد استهلكت كل طاقتها في الدراسة، وتحتاج أن ترّوح عن نفسها قليلاً، فاستأذنت أمها واتصلت بمازن متفقة معه على الخروج سوياً، علها تبتعد عن هذا الضغط وترتاح.

بعد نصف ساعة ألتقت معه، نزل من السيارة مقترباً منها قائلاً:

_خيراً يا بدر البدور أنتِ، مالكِ؟

_متعبة قليلاً فحسب، لا تقلق.

وضع يده على كتفها مردفاً بحنان:

_أنتِ لها، مرحلة صعبة وستمضي، غداً فرحة النجاح ستنسيك كل هذا التعب يا حلوتي، كوني قوية كما أعرفك، هيا لننطلق.

ابتسمت ممتنة له، بدور تحب أخيها كثيراً، تشعر وكأنها لو بحثت في كل العالم لن تجد شخصاً ذا قلبٍ حنونٍ كأخيها، أردفت:

_مازن، دعنا لا نذهب في السيارة، أود المشي.

_كما تريدين، تعالي هاتي كفكِ إلي يا بدر البدور.

كانت نسمات الهواء الباردة والمنعشة، تداعب وجهيهما، وكذلك قلبيها فيشعران بالطمأنينة، سألت بدور بعد أن لاحظت شرود مازن:

_ما بك يا أخي، بماذا تفكر؟ حدثني عنك، وعن هذه الأيام كيف تمضي معك، وكيف العمل؟

_الحمد لله جميع الأمور بخير وعلى ما يرام، هل في قلبكِ مكاناً للسرّ يا بدور؟

ضحكت:

_مكان؟! أنا صندوق أسرار يا مازن.

داعبها قائلاً:

_أعتقد أنه صندوق مفتوح، وسأفتضح بالتأكيد.

نكزته بيدها مردفة:

_يا شرير، ألا تعرفني! ثم قل لي ما عندك هيا لا تتهرب.

_اتصلت بي اليوم طبيبةُ شفق، وطلبت مني زيارتها لتطلعني على آخر ما توصلت إليه.

_وماذا حدث؟.

_أخبرتني عن حالة شفق، قالت بأنها تعاني من اضطراب نفسي يدعى "تبدُّد المحيط" إذ أنها تنفصل عن محيطها أو عن شخصيتها، ولا تشعر بأي شيء.

وسبب هذا الاضطراب هو الإساءة العاطفية أو الإهمال خلال فترة الطفولة، ومشاهدة العنف المنزلي، وقد تأكدت من ذلك بعد رسائل شفق إلى عمي، التي طلبت الطبيبة من شفق كتابتها، ويالها من رسائل يا بدور!.

المريح هو قولها بأن حالة شفق ليست صعبة، وبأن الاضطراب غير متفاقم عندها، وقد يتزامن معه القلق والتوتر وأحياناً محاولات لإيذاء النفس أو الانتحار، وأما عن محاولات الانتحار فإنها غير واعية وتلجأ إليها لتخفيف الألم الذي تشعر به، وأحياناً تؤذي نفسها انتقاماً من الآخرين..

_كيف حفظت كل هذا يا مازن! لكنها ستشفى يا أخي أليس كذلك؟

_نعم كذلك، ونرجو من الله أن يشفيها ويعافيها، ويلطف بقلبها.

_مازن.

_نعم يا بدور؟.

_أنت تُحب شفق صحيح؟

طالعها بنظرة استغراب رافعاً حاجباه، فأكملت:

_ماذا؟ ألن تجيب؟ على كل حال عيناك وحدها تؤكد، هيا اعترف بذلك وافتح قلبك لي يا أخي، خفف عنك أنت إنسانٌ رائعٌ يا مازن، تساند الجميع بينما لا تستند على أحد وتحدثه بألمك، أنت لم تشتكي يوماً.

تنهدّ قائلاً:

_أتعلمين؟ أشعر بأضعاف الآلام حينما أراها تتألم، تذرف مقلتيها الدموع، فتشاطرها روحي البكاء، العجز أمامها يُدمي قلبي يا أختي، آه لو رأيتِ رسائلها وكمية الوجع والاحتياج التي تسكن فؤادها، لا أدري كيف لفتاة بِرقة الورد أن تحتمل كل هذا!

أ تصدقين يا بدور بأنني أفكر بالابتعاد عن البيت بأي طريقة كي أتوقف عن رؤيتها بتلك الحال.

_أولست تحبها يا مازن؟

_بملأ ما في الأرض من حُب.

_وهل يبتعد المحب؟

صمت قليلاً بينما أجابت عيناه، شدت على كفه وتابعت:

_اصبر يا مازن، صدقني رغم شعورك بأن قربنا منها لا يغير شيئاً ولكنه يغير الكثير، سندعمها وندعو لها، سيزول المرض لتغمرها العافية بإذن الله، الأمر يحتاج وقتاً وصبراً، أستتركها وحدها؟ هي بحاجة للشعور بأن هناك من يحبها ويثق بها رغم ما بها ولو لم تُبدي لنا ذلك، وأما عن قلبك.

نظرت إليه بابتسامة لطيفة مردفة:

_فثق بأن الله لا يترك قلباً مُتعباً، ويجاهد الله في ثباته، دون أن يقرّ عينيه بما يرجو ويجبر كسره يا أخي.

*****

"السلام عليك يا أبتي، يا طائراً هاجر وترك عصفورته الصغيرة مكسورة الجناح، عصفورة لا تعرف كيفية الطيران، أعصفورة تلك التي تُسجن بدون قفص، وترى جمال السماء ولا تجرأ على التحرك نحوها؟!

أزف إليكَ خبراً جميلاً لكنه بدا كئيباً فجأة، حتى أشياءنا الجميلة تفقد رونقها حينما لا نجد من نشاركها معه، بصراحة يوجد من

أشاركه إياها، لكن مشكلتي هي غيابك وحاجتي إليك، ومشكلتي الأكبر هي ذكرياتي التي ترتسم أمامي فجأة وتكرّ كشريطٍ لا أستطيع إيقافه، ولا يمكنني إلا أن أُجرّ وراءه مستعيدة كل ذلك وكأنه يحدث لتوّه!.

مؤلمة هي النجاحات التي لا ترى فيها عيون من تحب تنظر نحوك بفخر واعتزاز فتُشعرك وكأنك ملكت الدنيا بما عليها. الامتحانات التي استنزفت كل طاقتي انتهت وظهرت نتيجتها اليوم، كانت الأجواء مبهجة فعلاً، رأيت إحداهن تتصل بوالدها لتخبره ذلك بفرح، والأخرى بوالدتها لتخبرها بأن تعبها معها لم يذهب سدىً، والكثيرات يحتفلن، كلّ واحدة بطريقتها، قبل قليل رأيت منشوراً لصديقة لي، تبدو وكأنها في حفلة، والدها يقف قبالتها ويقبل جبينها، وقد كتب لها كلاماً جميلاً ولطيفاً، كلاماً بإمكانه أن يجعل للفتاة جناحان تطير فيهما أبعد ما يمكن بفرحتها تلك، كلاماً ذكرني بأنني طائر بلا جناحين، لم يؤلمني الحفل، ولا التفوق الذي حازت عليه، ولا المنشور ذلك.

أنا فتاة معقدة، تؤلمها كل لقطة لفتاة تحظى بحب وحضن أب، فتاة تأثرها كلمات التشجيع والثناء إذ لم تسمعها طوال طفولتها،

لا أدري ماذا يخسر الآباء لو كسروا جدار كبريائهم قليلاً ليحظوا بقلوب بناتهن الحزينة!.

أخذتني ذكرياتي للصغر، لليوم الذي أخذت فيه العلامة التامة، حينها عدت أصرخ فرحاً للبيت، ومعي شهادة امتياز من المعلمة، كنت لا أطيق صبراً حتى أخبركما بإنجازي الجميل، حتى دخلت ورأيتك غاضباً وصراخك يصدح في المنزل، وجدت الزجاج المكسور هنا وهناك، رغم خوفي إلا أنني اقتربت منك، ظننت بأن سماعك لهذا الخبر الذي يفرحني سيسعدك ويذهب عنك الغضب، لكني ما إن أخبرتك حتى انهلت عليّ وعلى دراستي وحياتي ويوم مولدي بالشتائم الغليظة، تحجرت الدموع بمقلتي، ورحت اتجه إلى المطبخ عند أمي، وفي طريقي دلفت زجاج صغيرة في قدمي اليسرى أثناء سيري، فبكيت عندها بصوت عالٍ، مما جعل أمي تأتي تُمسك بيدي وتجبرني على المشي سريعاً معها لغرفة النوم حتى لا يزيد ذلك من غضبك، مع كل خطوة كان بكائي يعلو ويزداد، وصلنا الغرفة، فمسحت أمي دموعي وقالت لي: "كفى يا حبيبتي، بابا لا يقصد".

فقلت لها بين دموعي بصوت باكٍ أن هناك زجاجة في قدمي تؤلمني وأنها جبرتني لأمشي عليها، تنهدت أمي حينها حتى خلتها ستسحب كل هواء الغرفة، جثت على ركبتيها، أجلستني وأخذت الشهادة مني بسرعة حتى دون أن تنتبه لها، خلعتْ جواربي وبدأتْ تحاول إخراج تلك الزجاجة.
في ذلك اليوم، غُرزت الزجاجة لعمق قلبي ولم تخرج للآن، بينما زجاجة قدمي خرجت بعد ذلك بصعوبة."

تنهدت شفق بعد قراءة تلك الرسالة، مسحت دمعتها بطرف سبابتها، وحملت القلم وبدأت بالكتابة على الوجه الآخر لتلك الورقة.

"مرحباً مجدداً، لقد تركت الرسالة يوم أمس، كنت اليوم في جلسة عند الطبيبة، وحدثتني عن المواقف الغير منتهية، شعرت أن ما كتبته البارحة كان موقفاً غير منتهي، لذلك أنا سأنهيه الآن.
في فترة ما من حياتي كنت أكرهك كثيراً، أكثر مما تتوقع، ثم كبرت وبدأت أفهم ما الذي كان يحدث معك، مشاكلُ في

العمل، ومع أولئك الرجال السيئين الذي يتاجرون بذلك السم الأبيض، ومشاكل إدمانك كانت المصيبة الأعظم.

عرفت أيضاً أنك فعلاً لم تكن تعي ما تفعل فعذرتك.

أخبرتني أمي قبل قليل بينما كنا نتناقش بأنك كنت تحبني كثيراً وتخاف علي، وبأنك تشعر بالعجز اتجاهي لأنك لا تدري ما تفعل حينما تكون أسير تلك الحبوب، وبأنني كنت أستحق والداً أفضل منك، حدثتني بأنك غفوت تبكي في ذلك اليوم عندما عدت لوعيك وأخبرتك أمي بما حدث، قالت بأن شعورك ـبالحزن لأجلي وبالعجز عن كونك أبٌ جيد مهما حاولتـ كان يضغطك، فتخرج ذلك الضغط بالصراخ علي حينما لا تعي ما تفعل!.

أخبرتني الطبيبة بأننا حتى نتخلص من الموقف غير المنتهي، علينا أن نذهب لذلك الشخص الموجود في ذلك الموقف ونناقش الأمر معه، لنضع نهاية له، حتى يتوقف شعورنا السيء الذي يتكرر كلما مررنا بموقف مشابه، وقالت بأن ذلك يحتاج شخصاً شجاعاً، لذلك عدت إلى البيت، وقد قررت أن أواجه ذلك وأكون شجاعة أمام نفسي من الآن فصاعداً، جلست مع أمي جلسة مطوّلة، استفهم منها، وادعها تحدثني، وتجيبني عمّ في داخلي من أسئلة، وفعلاً كما

قالت الطبيبة، اكتشفت أن أفكاري ومشاعري كانت متضخمة وغير واضحة، وها أنا ذا أعالج الموقف بالطريقة الثانية أيضاً، وهي أن أحاول تخيلك والحديث معك لأفرغ كل ما في قلبي، ها قد حدّثتك وبكيت وكتبت، تبقى شيء واحد فقط، هو أن أخبرك بأنني قد سامحتك، وبأن كرهي نحوك كان يقل كلما عرفت عنك أكثر وتفهمت شعورك وموقفك، وكان يُنسى كلما اشتقت إليك، واليوم بعد معرفتي بحبك لي من أمي تلاشى كل ذلك، قلبي نقي تماماً اتجاهك صدقني.

بابا أنا أحبك.

لم أكن أدري أن المواجهة مريحة هكذا، رغم أنني امسح دموعي بين الفينة والفينة، إلا أنني أشعر براحة حقيقة أثلجت صدري."

*****

_صباح الخير.

_صباح الخيرات، تفضل.

ردت شفق وهي تناوله علبة من حلوى غزل البنات البيضاء، المزينة بالفستق.

ضحك قائلاً:

_ما هذه؟

_غزل البنات.

_أعرف ولكن لماذا تعطينها لي؟ أترينني فتاة صغيرة؟

_جلبت لك البارحة حلوى الكنافة، ولكنك تأخرت في العودة، فتم أكلها كلها وفاتتك، لذلك اقبل غزل البنات هذه كتحلية لجعلك عمي يوافق على عملي بالتدريس.

_دعيها لك يا شفق، كنت أمازحك فحسب.

_مازن سأفتح العلبة فوق رأسك إن لم تأخذها مني.

تابع الضحك وتناولها من يدها مردفاً:

_أرى بأن شفق الشقية عادت هذا الصباح، بالمناسبة أتذكرين أول مرة جلبتها لك أنت وبدور؟

كان مازن يجلس في الشرفة، وشفق تقف قبالته وتشرع في سقاية أصص النباتات، أجابت:

_بالطبع أذكر.

أقبلت بدور، رمت دفترها على الطاولة بلا مبالاة، ونهضت لتجدد الطعام والماء للطيور مردفة:

_وكيف أنسى يا عديم الإنسانية!، جلبها لنا ثم راح يؤلف القصص ونحن نستمتع بالأكل.

أكمل مازن:

_الله العليم من فينا منعدم الإنسانية، أخبرتكما بأن الحلوى تُسمى: "شعر القط" لأنهم يصنعونها من القطط البيضاء اللون، شفق راحت تبكي على القط، وأنت تابعت الأكل وأخبرتني بأنك ستجلبين لي قطط الشارع لآخذها وأحوّلها إلى حلوى وأجلبها لك.

امتلأت الشرفة بالضحكات والذكريات، ثم أخبرتهم شفق بأن اليوم هو أول درس لها لابنة حنين، فدعوا لها بالتوفيق والتيسير.

دلفت داليا للعيادة لم تكن سماح قد ذهبت بعد، ألقت التحية فردتها الأخرى وسألت:

_كيف الأمور معك يا داليا؟.

_بخير الحمد لله، أشعر بأنه قد تحسن كثيراً.

_مهلاً عزيزتي، الاكتئاب مرض طويل ولا يرحل بليلة وضحاها يا داليا، حتى لو بدت على المريض آثار التحسن، هي نوبات متباعدة تجيئ وتذهب، عليك التعامل معه ومعالجته بتؤدة وحلم، بالمناسبة تحدثت اليوم مع إحدى المرضى عن موضوع الثقة بالنفس أو ما يسمى (الشعور بالاستحقاق)، هل حدثتِ علي عن ذلك؟ معظم مرضى الاكتئاب يعانون من عدم الاستحقاق.

_لا لم أحدثه سابقاً عنه، اليوم سأفعل إن شاء الله.

_كوني صبورة يا داليا.

_حاضر.

_حظاً موفقاً.

قالتها ومضت مغادرة المكان، وكذلك السكرتيرة بدأت تلملم أغراضها للذهاب فهي تعمل في دوام سماح فحسب، دلفت داليا للداخل، ضغطت زر تشغيل التكييف وجلست تراجع بعض المحاضرات

السابقة، كان الهدوء يعم المكان، وصوت المطر وحده يخيم على الأجواء يبعث على الطمأنينة.

بعد نصف ساعة وصل علي، سألت عن أحواله وأخباره، ثم ابتدأت الجلسة سائلة إياه:

_كم تُقيّم ثقتك بنفسك من عشرة؟

_ربما.. خمسة.

_ما مفهومك للثقة بالنفس يا أ.علي؟

صمت قليلاً ثم أجابها بالقليل من الكلمات، تبادلت معه بعض الأسئلة، ثم راحت تقول:

_اسمع يا صديقي، هذه الخرافات التي يتناقلونها عن الشخص الواثق بنفسه غير صحيحة، فمعظم الناس يظنون أن الشخص الواثق بنفسه هو ناجحٌ دائماً، قوي ولا يشعر بالوهن والتعب، حتى الفشل لا يقترب منه، وهو على صواب، وجميع أموره على ما يرام، لكن هذه أوهام والحقيقة ليست كذلك، هذا الشخص خارق وبالطبع ليس موجوداً.

نحن بشر نُخطأ ونصيب، جميعنا نفشل ونخاف ونضعف، الله وحده هو القوي دائماً، نحن علينا أن نثق بالله ونستمد قوتنا منه.

_إذن، كيف نتعامل مع ضعفنا ونقصنا ونثق بأنفسنا أيضاً؟.
_أولاً: عليك أن تعلم بأنك بشر، ومن كمالك أن ترضى بنقصك، ولا تركض وراء المثالية والكمال، فالكمال لله وحده، تقبّل أن تُخطئ وتضعف بعض الأحيان، تقبّل الفشل، تقبّل الحزن، هذه من مقوّمات بشريتك، فإنك لن تتعلم دون أن تتعب وتمر بالفشل، لن تشعر بطعم النجاح لو كان سهلاً هيناً، لا بأس أن نقع مرة، مرتين، عشرة، لا بأس ما دمنا ننهض ونحاول من جديد.
فاعلم بأن قبول الضعف قوة، وقبول الفشل نجاح، تقبّل نفسك بكل ما فيها وارفق بها، ثم حاول إصلاحها شيئاً فشيئاً.
ثانياً: عليك أن تصدق في داخلك بينك وبين نفسك بأنك تستحق أن تُحترم، وتُحب، وتعامل معاملة طيبة.
لا تربط شعورك بالاستحقاق بشيء قد فعلته أو بشيء تملكه، كنجاحك، إنجازك، مالك، وقولك وغيرها، أنت تستحق الثقة والحب بدون مقابل ومهما كانت حالتك.
ثالثاً: أعطي نفسك فرصةً جديدة كل يوم، لا تسجن نفسك بالأمس وفيما حدث من آلامٍ في الماضي، اعلم أن رحمة الله

واسعة، وعوضه جميل، إن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

والأهم، لا تقارن نفسك بأحد ولا تغيّرها لتنال إعجاب شخصٍ ما، ولا تقبل بمن يضع لك الكثير من الشروط حتى يحبك ويقبل بك ويُطالبك بأن تكون ملاكاً، أنت لست جماداً، ليطالب بإعادة تشكيلك كما يريد، أنت بشر تمر بحالات مختلفة سيئة وجيدة، تتقدم أحياناً وتتراجع أحياناً أخرى، ثق أن من يُحبك فعلاً سيحبك دون شروط وقيود يفرضها عليك.

نهاية يا صديقي، حاول أن تستبدل شعورك بالذنب إلى الإحساس بالمسؤولية، أي بدل أن تجلد نفسك عند الخطأ، كن شجاعاً واعترف بخطئك، لا بأس أن نعتذر ونجدد توبتنا، تعلم ألا تكرر هذا الخطأ ثانيةً، سامح نفسك وسامح الآخرين، فقوة العفو تمنحك قوة وتخفف من حملك

قبل ذهابك تفضل هذه الورقة واكتب عليها ما سأقوله لك الآن، وانظر إليها على الدوام:

1) أنا بشر، أخطأ وأفشل وأضعف، ولا بأس في ذلك.

2) أنا أستحق أن أُقبل، وأُحب، واُحترم، بدون شروط.

3)سأمنح نفسي فرصة جديدة كل يوم.

4) سأستبدل شعوري بالذنب اتجاه أخطائي، إلى شعور بالمسؤولية اتجاهها حتى لا أكررها، وأتعلم منها.

ولا تنسَ أن تصلح علاقتك مع الله، وأن تلتزم أذكار الصباح والمساء، وتتلو القرآن، فإن تلاوته تحيي القلوب وتطمأنها.

*****

بعد الدرس طلبت حنين من شفق البقاء عندها قليلاً، أعدّت القهوة وعادت مردفة:

_شكراً على مجيئك فعلاً، أخبريني كيف هو مستوى ابنتي؟

رشفت القليل من الماء وأجابتها:

_حباً وإكراماً يا حنين، مستواها جيد، بصراحة عندي لك بعض النصائح لو كنت ترحبين بسماعها.

أعادت حنين فنجانها للطاولة، وتنبهت حواسها مؤكدة على سماع تلك النصائح.

_حسناً، الطفل في هذه المرحلة يحتاج إلى من يُبدي اهتمامه به، اسأليها عن نفسها عن الأمور التي تهتم لها، وتحاوري معها، فإن الحوار ينمي شخصية الطفل بشكل كبير.

_وما علاقة الحوار؟ أميرة كثيرة الكلام طوال اليوم، ولكنها على العكس تماماً في المدرسة.

_يا عزيزتي، جميع الأطفال هكذا، فهم بحاجة للكلام والثرثرة، أما الحوار يختلف، عليك أن تسمعينها وتحاولين إبداء ردة فعل لكلامها، كأن تبتسمي أو تسألي عن شيء ما، تخبرينها بأنك تُقدّرين مشاعرها، فإن ذلك سيُكسبها الثقة، وعندما تثق بنفسها ستستطيع أن تتفاعل مع الأطفال في المدرسة، وكذلك سيُمكّنكِ من فهم طريقة تفكير ابنتك، وتعرفين مخاوفها ومواطن الضعف في شخصيتها، وبالتالي ستدعمينها وتساعدينها على التخلص منها.

ذلك يحتاج صبراً، أعرف ذلك ولكنه سيوطد علاقتك بأميرة كثيراً، ولا تقلقي سأساعدك في ذلك لن تقتصر مهمتي معها على التدريس فحسب.

_فهمت عليكِ، جزاكِ الله كل خير يا شفق.

ـحباً وإكراماً، سأعطيك أسماء كتب تربوية ستفيدك أيضاً إن أردتِ.

حينما خرجت شفق كانت تشعر بالسعادة والرضا، إن الإنجاز والعطاء دائماً ما يعود علينا بشكل إيجابي وشعور جميل، لم تتوقع بأن الكتب التربوية التي كانت تقرأها لتمنح أطفالها المستقبليين طفولة وردية، وتربية شاملة تمكنهم من التعامل مع جميع جوانب الحياة، ستفيد بها غيرها أيضاً، منحها ذلك ثقة لتثابر على ماهي مُقدمة عليه. قد نظن بأننا حينما نسعى لإصلاح أنفسنا وتنميتها، ستستفيد نحن فقط، بينما قد يرانا غيرنا نفعل ذلك فيتشجع للمحاولة معنا، قد نكون ثبات غيرنا وثباته على هدفه، وبالتأكيد فإننا حينما ننتهي من الاستفادة سنسعى للإفادة، وكما يقول علي الطنطاوي رحمه الله:

"ما الأُمّة إلا أنا وأنتم وهُم وهُنّ، فإذا لم يُصلِح كُلُّ مِنّا نفسَه لم يكن للأُمة صلاح."

_ماذا عندك بعد العمل يا منير؟

سأل علي صديقه في العمل، نزع الآخر مريوله وتناول معطفه شارعاً في ارتدائه قائلاً:

_لا شيء، الحمد لله أننا أغلقنا اليوم باكراً، العم سعد طيب في معاملته معنا، أحب مثل هذه العطل المفاجئة، بالمناسبة لماذا تسأل؟.

_ما رأيك أن نخرج معاً؟

_لا بأس، هيا بنا، سأجلب بعض الطعام من الداخل لنأكله في طريقنا، ستكون سهرة رائعة، أريد الاستماع لقصة حياتك كاملة.

_وهو كذلك يا منير، لدي أحاديث كثيرة تحتاج أذنٌ منصتة.

مثلما تخلّ أزهار البابونج في الماء الساخن إلى أن تذبُل، أنا على استعداد أن أعطيك قلبي، في كلّ مرّة، مرّةً تلوَ مرّة، كي تكون بخير.

_لقائلها

كانت تذرع رواق المستشفى ذهاباً وإياباً، تضم كفيها لبعضهما وتفرقع بأصابعها من حين لآخر معبرة عن توترها وخوفها، تلتقط دمعاتها عن عينيها الحمراوتين كل حين، أقبل مازن نحوها مسرعاً، فركضت إليه وضمته مجهشة بالبكاء، مسح على رأسها بصوت جاهد لجعله متوازناً كي يطمئنها:

_أهدئي غاليتي بدور، ما الذي حدث أخبريني؟

سحبت أنفاساً متتابعة محاولة استرجاع صوتها، ابتعدت عن حضن مازن ماسحة دموعها عن خديها بعشوائية، مردفة بكلمات متقطعة:

_ذهبت لغرفة شفق لاصطحابها، كنا سنخرج معاً، ولكن ما إن دلفت حتى فوجئت لرؤيتها ممددة على أرضية الغرفة وأوراقها التي

كانت تحملها مبعثرة حولها، حاولت إيقاظها بشتى الطرق، ناديت وصرخت ولم تصحو يا مازن.

صمتت مواصلة بكاءها، سألها بجنون:

_وماذا بعد يا بدور أكملي، كيف هي الآن؟

_دخلت زوجة عمي الغرفة وجن جنونها، ظنت بأن ابنتها الوحيدة قد ماتت، اتصلنا بالإسعاف وأتينا إلى هنا.

_ألم يخبرونك بشيء عن حالتها؟

_لا.

_أين الخالة ابتسام؟

_نزل ضغطها وفقدت وعيها هي الأخرى في إحدى الغرف هنا.

_حسبي الله ونعم الوكيل، وأمي؟

_لم أخبرها، لقد ذهبت مع أمل للروضة، هناك احتفال للأطفال ودعوة لحضور الأمهات.

_الحمد لله، يا رب ألطف بها واحفظها.

ربت على كتف بدور ومشى معها نحو المقعد المجاور، جلسا معاً.

أردف قائلاً:

_لا نملك سوى الدعاء لها يا أختي، وهذا شيء عظيم فالدعاء قد يغير الأقدار، ستكون على ما يرام بإذن الله.

كاد يفقدها عدة مرات ونجت بأعجوبة من ذلك، أيعقل أن يفقدها هذه المرة؟ أجفل بمجرد الخاطر، راح يردد بينه وبين نفسه: "يا رب عودتنا جميل لطفك، فألطف بقلوبنا يا الله وشافها"، "يا خفي الألطاف نجنا ممَّ نخاف".

*****

كانا يتناولان فطورهما معاً في مطعم يطلُّ على شاطئ البحر، الذي تتلاطم أمواجه الهائجة لتصدر صوتاً يقع على مسامع داليا كالسحر، ولا شيء أحب إليها من سماعه، تستند برأسها على كفها حالمة، تشعر بأنها في حلم من فرط السعادة التي تغمرها، كان اللون الأزرق ينسكب على كل الأشياء بتألق، فستانها الفضفاض الأنيق، السماء الصافية، البحر، غطاء الطاولة، والعينين اللتين تطالعانها بحب أمامها الآن!

كانت مبتهجة لدرجة أنها أدمعت في بداية اللقاء، راحت تتذكر حديثها مع إيناس منذ عدة أيام، حينما أتت لعيادتها كالمجنونة،

الفرح يقفز في قلبها وعينيها، وكيف حكت لها عن رسالة علي التي تلقتها أمس، كان يطلب رؤيتها لأمرٍ ضروري في الصباح، حينها اشتعلت في رأسها قناديل القلق، ولم تستطع إغماض جفنيها طوال الليل، وفوجئت به في اليوم التالي إذ يحدثها عن رغبته بخطوبتها، وبأنه يريد رقم ولي أمرها في أقرب وقت، فصُدمت داليا تماماً ونهضت تاركة إياه جالساً وحده على مقعد الحديقة وذهبت.

من ثم توجهت إلى عيادة إيناس مباشرةً، لم تأبه بالمريضة التي كانت عندها وراحت تروي لها عم حدث بالتفصيل، بينما الأخرى التزمت الصمت ولم تتفوه ببنت شفة، أنهت إيناس عملها مع تلك المريضة، ثم أغلقت العيادة وخرجت مع داليا متجهة إلى منزلها، حينما دخلا البيت سألت داليا:

_ما بكِ يا إيناس ها قد وصلنا للبيت، تكلمي ما بك؟

_أجُننتي أم فقدتِ عقلكِ؟ كيف تقولين بأنه يريد طلب يدكِ؟ هو مجرد مريض عندك فقط يا داليا، ثم إنه يمر بأزمة نفسية ولا يجد سواك لجانبه الآن، فمن البديهي أن يتعلق بك، لكنه ليس حباً حقيقياً ينبع من دواخله يا عزيزتي!.

_لا أبداً، إن مشاعره حقيقية لقد أحسست بصدقها.

_داليا، ستندمين فيما بعد صدقيني.

_دعيني وشأني، في النهاية أنا من سيندم لا أنتِ، ها قد تأكد شعوره اتجاهي، أولستُ أحبه، إذن ما الذي انتظره أكثر من هذا! لأوافق وأعيش التجربة.

_يا حمقاء، أنت تظنين الأمر مغامرة بينما هو قضية حياة كاملة، لن أدعكِ لتكملي أحلام العصر التي تحتل رأسك، هذا مستحيل، غامري بكل شيء يا داليا إلا في قلبك!.

_للآن أنا لا أفهم ما مشكلتك مع الأمر.

_هو مريض أولاً لا يعي ما يفعل، ثانياً عنده مشاكل عائلية من هنا إلى خمسين سنة قادمة، هذا إن انتهت بعد خمسين سنة، ثالثاً أنتِ تتولين علاجه في الأساس لرفع علاماتك ودرجاتك في الاختبارات، ثم لا تنسي بأنك ستسافرين إلى عائلتك في السعودية بعد التخرج، كيف ستوافقين على طلبه وأهلك بعيدين؟

_كفاكِ ترديد كلمة مريض، حالته جيدة جداً ليس مجنوناً حتى لا يعي مشاعره وما الذي سيفعله، وقد أخبرته سابقاً بأنه مريضي

الأول ولم يبدي أي انزعاج، أما عن عائلتي فأنا أعرف تماماً كيف أقنعهم بالأمر.

ضربت إيناس وجهها بكفها عدة مرات متتالية ثم سألت:

_إذن ماذا ستفعلين؟

_أفكر بإعطائه رقم والدك.

رفعت حاجباه استنكاراً، فتابعت الأخرى:

_لا تضخمي الأمور يا إيناس، سيكون كل شيء على ما يرام، هيا ابتسمي وقولي لي مبارك.

_دعيني اهدأ ثم نتحدث.

أفاقت من ذكرياتها على صوت علي يسألها:

_لماذا أميرتي صامتة؟

_لأن اللغة عاجزة عن وصف شعوري.

_وكيف تشعرين؟

توردت وجنتاها وعادت للصمت، تابع:

_خلال هذا الشتاء لم أشعر بالدفء كما الآن، ولا أشعر بذلك إلا معك أنتِ.

ثم أخبرها بأن أموره قاربت على التحسن ووعدها باحتفال جميل يمتلئ بالفرح والأحباب، وأن هذا الاحتفال الصغير ليس كل شيء، ابتسمت وكادت تخبره بأن وجوده معها يكفيها فهو بمثابة كل الناس في عينيها.

*****

خرج الطبيب فهرع الاثنان نحوه ليطمئنا عليها.

_خير حضرة الطبيب، كيف حالها الآن؟

سأله مازن فأجابه بهدوء:

_لا تقلقا إنها بخيرٍ الآن، حالة تسمم وأجرينا لها عملية غسيل للمعدة، بإمكانكما رؤيتها حالما تصحو.

قالها ومضى في طريقه، تنفس مازن الصعداء يردد الحمد لله هو وأخته، وذهبا لغرفة السيدة ابتسام ليخبروها حتى يطمئن قلبها على ابنتها.

بعد قليل خرج مازن يحمد الله على انقضاء هذا الكابوس على خير، راح يفكر هل هو تسمم عادي من أحد الأطعمة يا ترى أم أنها أقدمت على الانتحار؟! ما الذي أزعجها لتفعل ذلك؟ يا الله أسيبقى خائف عليها هكذا على الدوام؟!

اتصل بوالديه وأخبرهما الأمر بروية وبطريقة مناسبة حتى لا يسبب لهما الخوف والقلق، ثم اتصل بالطبيبة طالباً منها الحضور، مشى بخطوات متثاقلة خارج المستشفى، قد تحمّل الأمور الأصعب دون أن يشعر بثقلها، ما له هذه المرة، يشعر وكأن الأمر كصخرة كبيرة تجثم فوق صدره، نحن أقوياء ما لم يتعلق الأمر بمشاعرنا، نتحمل، نصبر نتابع، ولكن ما إن ترتبط الصعاب بشخص نحبه حتى نستشعر صعوبتها.

اتجه للمسجد بعد سماعه لأذان العصر، دلف للداخل كطفل صغير مجروح، يبحث عن أمه لتبث في روحه السكينة، تذكّر نفسه قبل عدة سنوات، كان يمر بفترة عصيبة جداً وكهذه المرة فرّ من فوضى الحياة إلى هدوء المسجد، اقترب منه يومها شيخ جليل وسأله عن سبب تجهّم وجهه وعن الذي يشغل فكره، وبعد أن تحررت الكلمات من رأسه المليء بالضجيج وهو يبوح للشيخ، هدأ قليلاً، فأردف الشيخ بصوت متزن لطيف لا ينساه مازن حتى الآن:

ـيا بني إن الأمر كله لله، وليس لنا من الأمر شيء، سلم أمورك لله، وتوكل عليه حق التوكل، أذهب إلى الله بكل ضعفك وسيأتيك

الله بكل قوته، يا بني إن الذي دبّر كل أمورك قبل مجيئك إلى هذا العالم أيتركك الآن؟ حاشاه!

تأمل قوله تعالى: {يدبر الأمر}، وكما يقال إنها آية لو سكنت قلبك أسكنته يا بني.

كانت الذكرى واضحة جداً وكأنها حدثت للتو، سبحان الله شعر مازن بأنها رسالة من الله إليه، فأدى الصلاة وعاد للمستشفى بهدوء واطمئنان.

*****

خرج علي من بيت الخالة أم خالد بعد أن روى لها تفاصيل خطوبته لداليا، وما جرى معه خلال اليومين الماضيين، أبدت سعادتها البالغة وفرحتها له، وبادلته المباركات والتهاني طالبة منه أن يُحضر داليا معه لتناول الغداء في أحد أيام الأسبوع المقبل، فقد أحبت أن تشاركهما فرحتهما، وتستمتع بمرح الأجواء العائلية التي تفتقدها معهما، فوافق مؤكداً أنه سيتفق مع داليا في تحديد موعد قريب.

تمشى بين أشجار الصنوبر عائداً للبيت، فتح جواله عند وصوله ليفاجئ بسبعة اتصالات من والدته، داهمه القلق، يا ترى ماذا هناك ليستدعي الأمر كل هذه الاتصالات؟!.

فتحت عينيها ببطء، كانت الرؤية مغبشة، ثم بدأت تتضح شيئاً فشيئاً، نظرت لذلك المحلول المعلق بمعصمها، تساءلت: "أين أنا؟"، ثم راحت تحملق في المكان، كان اللون الأبيض يصبغ كل شيء، نظرت لجانبها فوجدت بدور مستندة برأسها إلى السرير الذي تمدد عليه شفق، بدأت الخواطر تأرجحها أهي في المستشفى بالفعل أم أن هذا حلم؟ ولو سلمت بأن هذه حقيقة، ما الذي حدث لتجد نفسها هنا فجأة؟.

تحركت قليلاً مما نبّه بدور أن هناك حركة، فرفعت رأسها لترى إن كانت شفق قد استيقظت أم ليس بعد، ابتسمت بمودة لرؤيتها تنظر إليها، نهضت بتأثر طابعة قبلة ودية على خدها وتحمد الله على سلامتها، ثم خرجت مسرعة لتنادي ابتسام.

كان الجميع في المستشفى قبيل المغرب، ثم ذهب كل من سعد ومازن للعمل بعد أن علموا أن حالتها مستقرة الآن، والسيدة ميساء أخذت أمل وعادت للبيت لتحضر طعام العشاء، كانت متفائلة بأن الأمور ستكون جيدة، وبأن شفق ستعود للمنزل مساء هذا اليوم.

وصل مازن بعد قليل ومعه بعض أزهار النرجس، أردف عند دخوله:

_حمداً لله على سلامة أميرتنا.

واقترب يناولها الأزهار، راحت تستنشق أريجها الفواح، ردت بصوت مبحوح:

_سلّمك الله يا مازن، شكراً لك.

_حباً وإكراماً، كيف حالكِ الآن؟، هل هناك ما يؤلمك؟

_بخير، أشعر بألم في حلقي، وبعض السعال والتعب فقط.

_ستتحسنين قريباً إن شاء الله أخبرني الطبيب، أنه بإمكاننا العودة للمنزل اليوم ولكنك تحتاجين الراحة عدة أيام، وممنوع تناول أي شيء سوى السوائل الخفيفة والمفيدة.

*****

أقبلت حنين مع صينية العصائر وقطع الكيك، وضعتها على الطاولة قائلة:

_أهلاً، أهلاً بالجميلات، خمنّ من أعدّ هذا الكيك؟

نظرت إيناس لابنة حنين المبتسمة ابتسامة عريضة تشعر بالفخر لأنها ساعدت أمها بإعداده.

ثم أردفت بحب:

_مؤكد أنها أميرة صحيح؟

أومأت بإيجاب وهي تمدح بعمل ابنتها، ثم قالت:

_هيا تفضلن بالأكل، أين أنتِ شاردة يا داليا؟ أبعدي هذا الهاتف من بين يديك وتعالي شاركينا.

_تباً للحب!، لطالما سخرت من قصص المحبين وها أنا ذا ابتلي الآن.

قالت داليا، فضحكت إيناس سائلة:

_ماذا هناك؟

قاطعتهما حنين قائلة لابنتها:

_خذي قطعة الكيك الخاصة بك واذهبي لتشاركي بابا يا حلوتي، المسكين يجلس وحيداً.

أطاعت الطفلة كلام أمها وانصرفت.

أكملت حنين:

_لا أحب أن نتحدث بهكذا أمور أمامها، هيا يا داليا أخبرينا ما بك؟

_آه يا حنين، اكتشفت أن الحب صعب، يجعلك تربطين سعادتك كلها بشخص واحد، إن لم يقل لك صباح الخير لا تشعرين بجمال الصباح، وإن لم يقل لك تصبحين على خير يطير النوم من جفنيك،

يصبح هذا الشخص بمثابة عينيك اللتين ترين بهما الألوان، وبدونه يصبح العالم رمادياً باهتاً.

_علي لا يرد عليكِ هذه كل القصة؟!

سألت إيناس، فأجابت داليا:

_راسلته منذ الرابعة، للآن لم يستلم ولم يرد، تخيلي تأخر بالرد خمس ساعات، أكاد أجن، حتى هاتفه مغلق!.

_ربما في العمل، أو أن بطارية هاتفه فارغة، التمسي له الأعذار يا داليا.

ردت حنين ثم تابعت:

_هيا لنبدأ لعبتنا المعتادة.

صاحت إيناس:

_أنا من سيسأل أولاً.

وتشرق الشمس كل يوم بتألق وشموخ، تشرق ماحية كل ظلام الدجى، مبددة كل عتمة، تعلمنا بأن ننهض كل يوم بأمل جديد ونترك يأس الأمس مع الأمس، تعلمنا أن لا نستسلم فمهما طال الليل سينجلي، ليغمر قلوبنا الصبح من جديد بنوره ودفئه وجماله.

كانت عائلة العم سعد تجتمع في الشرفة صباح ذلك اليوم، يتناولون طعام الإفطار باكراً بين خيوط الشمس، حولهم أصص النباتات والكناريان يغردان.

سألت شفق:

_لماذا كنت بالمستشفى البارحة، هل فعلت بنفسي شيئاً؟

_سلامة قلبك يا بنتي، تعرضت لحالة تسمم، والحمد لله أن انقضت على خير.

_ما سببها يا عمي؟ صدقاً أنا لم أفكر بذلك سابقاً، وقد بدأت تتحسن وأسيطر على نفسي، أخبرتني الطبيبة أن حالتي في تحسن ملحوظ في الآونة الأخيرة.

رد مازن مؤكداً:

_صحيح يا شفق، قالت الطبيبة سماح الكلام ذاته البارحة حينما أتت لتطمئن عليكِ.

_ما الذي أكلته البارحة؟

سألت ابتسام، فأجابت شفق:

_لا شيء استيقظت أثر الصداع، احتسيت القهوة مع بدور وذهبت لأجهز نفسي، وعندما انتهيت شعرت بالغثيان والدوار ثم أظلمت الدنيا من حولي، وفقدت إحساسي بأي شيء.

_قبل البارحة ماذا تناولت خارج المنزل؟

_لا شيء سوى قهوة مع ليان في الجامعة، وكأس عصير عند الطبيبة.

قالتها ثم انتبهت إلى أن هاتفها يرن، فأخذته وانسحبت للداخل.

*****

تململت داليا في جلستها، والقلق ينهش قلبها، لماذا لم يأتي علي لجلسة اليوم؟ إنه لم يرد على رسائلها حتى الآن أيضاً، أخرجت هاتفها وراحت تكتب له:

"صباح الخير يا علي.

أأنت بخير؟ أين أنت؟

صحيح أنني طبيبة ولكن قلبي ضعيف جداً حينما يتعلق الأمر بأحبتي، اتصل بي لطفاً يا علي عند رؤيتك للرسالة، قد احترقت أعصابي بالكامل صدقني.

ممن تحبك: داليا"

رسلتها غير آبهة بأسلوب الترجي الذي استخدمته رغم كرهها للتحدث به، لا شيء يهم الآن سوى أن تعرف سبب اختفاءه، نهضت بعصبية فاتحة النوافذ والستائر لتجديد هواء الغرفة.

ثم خرجت لغرفة الانتظار، كانت فارغة، اقتربت من مكتب السكرتيرة لتفتح النافذة، استفزتها الفوضى الطاغية على المكان، راحت تفرّغ طاقتها السلبية بالترتيب لتشغيل نفسها عن التفكير قليلاً، استرعى انتباهها بقايا ورقة من ظرف ما، كان شكلها غريباً، كادت ترميها ثم فكرت لربما هي ذات أهمية أو لها علاقة بأحد الأدوية فاحتفظت بها بجيب معطفها.

وصلت سماح للعيادة، فوجدت داليا ترتب المكتبة البسيطة الموجودة في ركن غرفة الانتظار، التي تحتفظ فيها سماح بالكتب التي قرأتها خلال رحلتها الدراسية للطب النفسي، سلمت على داليا،

سائلة على حالها وعن سبب ترتيبها هذا، ارتعشت داليا فلم تنتبه لدخول الطبيبة، ردت:

_بصراحة، قلقة لستِ بخير، لم يأتي المريض اليوم.

_ربما هو مشغول لا تقلقي عزيزتي، قد وصلت بإمكانك الانصراف الآن، عليكِ أن تدرسي وتحضري جيداً يا داليا، ومشكورة على الترتيب.

مضت داليا لإحضار حقيبة يدها للذهاب، ثم توقفت وعادت بخطواتها للطبية، مدت يدها إليها مردفة:

_بالمناسبة حضرة الطبيبة، وجدت هذه أثناء الترتيب، كنت سأرميها ولكن قلت لربما تهمك.

أمسكتها سماح بين أناملها، تنظر إليها بتمعن، تابعت داليا:

_استأذن الآن.

_مهلاً، أين وجدتها يا داليا؟

_على مكتب السكرتيرة بين الأغراض.

شردت سماح في أفكارها، لم تفهم داليا سبب ردة فعلها هذه، لكنها لم تسأل مضت في طريقها، فهي لا ينقصها المزيد من الأشياء التي تتطلب التفكير، حرب أفكارها الحالية تكفيها.

لقد قررت أن تتهور وتذهب لمكان سكنه في الريف، وليحدث ما سيحدث، ارتفع رنين هاتفها وكأنه يصيح، أخرجته بسرعة لترى من المتصل لعله يكون علي، لكنها كانت إيناس.

_مرحباً داليا، ما رأيك أن تأتي ونذهب معاً للمكتبة.

_أنا في محطة القطار الآن، لندعها ليومٍ آخر.

_ماذا تفعلين هناك؟

_سأذهب لبيت الخالة أم خالد لربما تعرف شيئاً عن علي.

_داليا، لا تفقدي عقلك أرجوك، لا ترمي بنفسك هكذا على الرجل.

_نار القلق تحرقني ولا أريد سوى إطفاءها الآن، وداعاً.

أغلقت الهاتف، وذهبت لتحجز مقعد لها في أقرب رحلة للريف.

*****

كانت شفق جالسة على الأريكة قرب المدفأة، بفستانها الأخضر السميك ولجانبها كأس من الشاي بالنعناع، منكبة على قراءة كتاب قد استعارته من مازن صباحاً، عدلت جلستها فوقعت ورقة من الكتاب على حين غرة، التقطتها شفق وراحت تقرأها، كان نصاً لطيفاً بخط مازن وكلماته، وعلى الطرف الآخر منها مكتوب قصيدة.

راحت تفكر في جمال الكلمات، تتساءل أيعقل أن يكون لمازن قصة ما، حتى كتب هذه الكلمات؟!، لمعت في رأسها فكرة، نهضت متجهة لغرفة بدور، دقت الباب بهدوء ثم دلفت للداخل:

_لديك بعض الوقت يا بدور؟

_بلى، تعبت تعالي لأرتاح قليلاً، أخبريني هل أعجبك الكتاب؟

_كثيراً، تعالي لأريك ماذا وجدت داخله.

اقتربت من مكتب بدور، وأخرجت الورقة تناولها إياها، قرأتها الأخرى وقالت بعد إنهاء آخر بيت من القصيدة:

_آه، لو كانت القصائد التي أدرسها شاعرية هكذا، لكنت حفظتها حال قراءتها.

ضحكتا معاً، أردفت شفق تضيق عينيها:

_أشعر بأن مازن لديه قصة ما يخفيها، ما رأيك يا بدور؟ أتذكرين يوم طلبت دفتره، كان حريصاً على ألا يريني ما يحتويه!

_على الرغم من أنه لا شأن لنا بأموره الخاصة، إلا أنني أفكر بذات الأمر يا شفق.

_كيف سنجعله يحكي لنا قصته؟

_نحن الفتيات فضولنا سيذهب بنا للجحيم، نعشق كشف الأسرار، سننتظر أن نلعب معه لعبة الصراحة، ضعي بين قوسين (لعبة الفضائح)، بتأكيد سنجعله يبوح بكل شيء وقتها.

*****

أنهت إيناس ترتيب العيادة، خلعت مريولها، وبدأت تجهّز نفسها للانصراف، فُتِحَ باب العيادة بهدوء، استدارت إيناس فرأت داليا تقف بوجوم عند الباب، لاحظت دموعها المتمسكة بأهدابها حتى لا تملأ وجنتيها، اقتربت إيناس منها:

_ما لك يا فتاة، أنت شاحبة ألم تأكلي بعد؟

_لا شهية لي، اسمعي يا إيناس تبقى لي أمل أخير، لم أجد علي لا في منزل أم خالد ولا في منزله، تبقى أن نذهب لمكان عمله، سمعت أنه يعمل في مطعم اللقمة الطيبة، رافقيني لهناك لطفاً.

_بشرط.

_ما هو.

_أن تأكلي عند عودتنا.

اومأت برأسها وذهبتا معاً في سيارة إيناس، كانت رائحة الطعام ساحرة تستفز شهيتك لتجوع مباشرةً، كان أساسه شعبي بسيط،

دلفتا للداخل، وتوجهتا إلى مدير المطعم يسألانه عن علي، وقد كررت إيناس كلمة ضروري عدة مرات أثناء كلامها.

فأجاب العم الطيب:

_مع الأسف أنه لم يأتي للعمل، حتى أنه لم يحضر للدوام المسائي ليلة البارحة، ولا يجيب على الاتصالات بتاتاً.

هناك صديق له في الداخل أخبرني بأنه لا يعرف أي شيء عن غيابه المفاجئ هذا، سأستدعيه لتحدثاه.

بعد قليل أطلّ شابٌ طويل القامة ذا شعر بني أجعد، يرتدي مريولاً أبيض اللون، ما إن رفع عينيه وألتقت عيناه بعيني إيناس، حتى رفعا حاجباهما معاً وابتسما، مما أثار استغراب داليا الغاضبة فنكزت إيناس بطرف يدها لتتحدث.

_أهلاً بكما، أنرتما المطعم.

قالها وهو لا يفهم ما سبب تواجدهما معاً، ردت إيناس:

_شكراً لك، بصراحة جئنا نسأل عن علي، هل رأيته اليوم أو تحدثت إليه أ.منير؟

_أنتِ الآنسة داليا التي صدع علي رأسي من تكرار اسمها؟ تشرفنا بكِ، عندنا أطعمة ممتازة هنا.

قال منير بعد انتباهه لداليا، فلاحظ انزعاجها الواضح، فتابع بجدية:

_لا لم أره منذ يومين، أنا أيضاً قلقٌ عليه، لكن هاتفه مقفل منذ البارحة.

تحركت داليا ببرود وخرجت من المكان تاركة إيناس التي ارتبكت من موقفها الغريب تفكر في ردة فعلها، سألت مجدداً:

_صدقاً أ.منير ألا تعرف عنه أي شيء؟

_لأختنق بقطعة فلافل لو كنت كاذباً بحرف واحد، حرفياً قد اختفى بغتةً.

كتمت ضحكتها من قسمه العجيب، اعتذرت للإزعاج، وهمت بالخروج مسرعة لتلحق بداليا، بحثت عنها في الشوارع المجاورة فلم تجدها، عاودت الاتصال أكثر من مرة بها لكنها لا تجيب، هتفت بحنق:

_أُف، كنا في اختفاء علي، صرنا في اختفاء علي وداليا، أنا رفضت تربية أجمل قطة كي لا تضيع وأبحث عنها، الآن يتحتم علي أن أبحث عن بشر عقلاء وسط الشوارع، وماذا في فصل الشتاء! يا رباه أكاد أفقد عقلي.

عادت المكان الذي ركنت فيه سيارتها بعد أن فشلت محاولات البحث، واتجهت لبيت داليا، الجيد في الأمر أنها تملك نسخة احتياطية للمفتاح، دلفت للداخل فوجدت داليا في الغرفة جالسة على الأرضية، تستند برأسها على الأريكة وتبكي بشجن، اقتربت منها بتؤدة جثت على ركبتيها، حاولت إبعاد بعض الخصلات عن وجه داليا الباكي مردفة:

_اهدئي غاليتي، كفى بكاء.

_اختفى يا إيناس، تلاشى علي من كل هذا العالم.

قالت وسط بكاءها بصوت متحشرج، فردت الأخرى:

_لا يمكن للأرض أن تبتلعه بالتأكيد، سيعود لا تدري ماهي ظروفه الآن.

_منحني الكثير من الحب ثم اختفى، كيف لقلب محب أن يحتمل الفراق؟!.

_داليا ستموتين لو تابعت البكاء على هذا النحو، انظري لنفسك تبدين كمومياء خرجت من قبرها للتو، هيا انهضي واغسلي وجهك.

_ تخيلي أنه مات!.

قالتها وغرقت في نوبة البكاء.

ـ كفاكِ تصوراً للكوابيس وانهضي.

ـدعيني وشأني.

كانت إيناس تقف حائرة، لا تدري ما الذي عليها فعله، ولا تفهم كيف حدث ما حدث، أيعقل أن يختفي شابٌ طول بعرض هكذا؟!

"أينما استوجب عليك وضع النقطة ضعها ولا تتردَّد، الفواصل غالبًا متعبة."

لقائله

كانت شفق قد انتهت من تجهيز نفسها، وجلست تجدّل شعر أمل، خرج مازن من غرفته، أردف باستغراب عند رؤيتها:

_ستداومين؟

_نعم، بالطبع، غبت ثلاثة أيام يكفي، أنا بخير الآن، علي تعويض ما فاتني.

_لكنك تحتاجين للراحة

_سأكون مرتاحة هكذا لا تشغل بالك بي.

أقبلت بدور قائلة:

_حلمتُ بأنني أتناول رغيفاً من الخبز بالزعتر الأخضر، فاستيقظت أموت جوعاً، أريد أن آكل وأكمل نومتي، لا تأخذوني للدوام.

رد مازن:

_كفاكِ تذمراً ككل صباح، سنأكل في طريقنا، إما أن تنهضي لتحققي أحلامك، أو أن تنامي وتحلمي بها فحسب.

ما إن خطت شفق بضع خطوات نحو الجامعة حتى أقبلت ليان تعانقها بشوقٍ كبير مردفة بنبرة حنونة:

_الآن أستطيع أن أقول أنه صباح الخير، فالخير قد أتى أخيراً.

_غاليتي يا ليان، وأنا اشتقت إليكِ كثيراً.

كانت كل منهما لديها الكثير من الكلمات والأحاديث لتقولها للأخرى، فتتحدثان معاً بعشوائية وتدخلا كل المواضيع مع بعضها وتضحكان.

شردت ليان وكأنها قد تذكرت شيئاً ثم قالت:

_خمني من جاء البارحة للكلية؟ بالمناسبة كان يبدو وكأنه يبحث عنك.

_من؟ أمير الأمراء؟

قالتها بسخرية ثم بُترت ضحكتها حين لمحت براء من بعيد يتجه نحوهما.

استطردت ليان:

_سبحان الله، ما إن نذكره حتى يظهر.

عندها فهمت شفق أن براء هو المقصود بداية الحديث.

استيقظت إيناس ناهضة بتثاقل، لم تجد داليا نائمة في الغرفة كالعادة، غريب!

ما الذي جعلها تستيقظ اليوم مبكراً، منذ ذلك اليوم الذي اختفى فيه علي، وهي لا تأكل ولا تتحدث إلا نادراً، وتلزم السرير طوال الوقت، لم تستطع إيناس تركها وحدها وبقيت بجوارها طوال الثلاث ليال السابقة، محاولة جعلها تتجاوز ذلك وتصبر مكملة حياتها، لكنها لم تستجب لها بتاتاً، متعللة أن رحيل علي يعني توقف حياتها، فمشروع التخرج ذهب أدراج الرياح، ولا تستطيع مواجهة أهلها وأقاربها إن سُألت: "أين خاطبك؟"، بماذا ستجيب، "عفواً يا سادة لكنه تلاشى!"

يوجعها أنها لا تعرف سبب غيابه المفاجئ، ولا إن كان مع الأحياء أو الأموات، لطالما كرهت الروايات ذات النهايات المفتوحة، وما إن بدأت قصة حبها المنتظرة، حتى انتهت نهاية مفتوحة ومجهولة!.

بحثت إيناس عن داليا فوجدتها تأخذ حماماً، بدلت ملابسها وشرعت بإعداد القهوة، انتهت داليا وأقبلت لتشارك إيناس في احتساء القهوة.

ـصباح الخير، الحمد لله تبدين بخير اليوم.

ابتسمت الأخرى ببرود مردفة:

ـتلقيت البارحة رسالة قبل النوم.

ـرسالة ماذا وممن؟

ـلا أدري من المرسل، انظري.

ناولتها الهاتف، راحت إيناس تقرأها، وكان مفادها:

"وقتاً طيباً د.داليا.

أريد رؤيتك عند الجامعة بعد الظهر، هناك رسالة لكِ من شخص ما"

صمتت بوجوم ثم قالت:

ـلم يرتح قلبي لهذه الرسالة، لا تذهبي يا داليا.

ـمستحيل، أنها ومضة أمل، عساها تكون من علي.

ـإذن، خذيني معكِ.

*****

ألقى براء التحية وتابع كلامه:

ـكيف حالك يا شفق؟ أتيت إلى هنا يومين متتاليين ولم أجدك، عساه خيراً؟

هكذا هو لا يعرف كيف يتخذ قراراً واضحاً وشجاعاً، دائماً ما يبقي الباب موارباً، فلا يفتحه بصدق ليرحب بها في حياته كيفما كانت، ولا هو يغلقه لينساها ويرتاح.

_الحمد لله، كل شيء بخير.

ردت عليه بعجلة، وأمسكت بكف ليان وشدتها ليمشيا.

استوقفها قائلاً:

_مهلاً يا شفق، هل بإمكاننا التحدث قليلاً.

_لطفاً يا براء أن تطوي صفحة الماضي التي جمعتنا وتنساها.

_لا بأس سنطوي الصفحة القديمة، ولكنني أريد فرصةً جديدة معك في صفحة حياتي القادمة.

_آسفة.

صمتت لبرهة ثم تابعت:

_لا فائدة من تكرار الفرص، واضحٌ أنه لا يمكننا أن نكمل معاً.

_ ولكن

_صدقني لا فائدة.

_حظاً موفقاً في حياتك القادمة.

قالها ومضى في طريقه بانزعاج، ردت شفق بخفوت:

ـوحظاً موفقاً لك.

نكزتها ليان مردفة:

ـ كنتِ صارمة يا شفق، لم تعطيه مجالاً للتحدث.

ـعليه أن يحتمل نتائج قراراته، يظن أن ما فعله كان هيناً علي، أنا لست لعبة يرميها ثم يعود ليأخذها وقتما شاء، قد اكتفيت من إعطاء الفرص، علينا أحياناً أن نضع نقطة في آخر السطر والسلام.

كأنّكِ ..

جزءٌ من الطبيعة

كأنّكِ ..

كلّما شعرتِ بالحزنِ

بكَتْ "من أجلكِ" السماء.

لقائلها.

بعد الظهر كانت السماء ملبدة بكثير من الغيوم، أقبلت فتاة متوسطة الطول نحو داليا وإيناس، ترتدي طقماً رسمياً، مع حجاب أبيض عادي الشكل، قالت وهي تمد يدها نحو داليا:

_مرحباً، أنت داليا صحيح؟

صافحتها داليا مؤكدة، نظرت لإيناس بابتسامة كنوع من السلام، سألت داليا:

_ممن الرسالة التي ستسلمينها لي؟

_تفضلي هذه هي الرسالة، أوصاني علي..

_علي بخير؟

قاطعتها داليا، فتابعت:

_نعم بخير، وقد أوصاني قبل سفره بإعطائك إياها، كان سيرسلها إلكترونياً، ولكنه شعر بأنها طريقة باردة.

ابتعلت غصتها عند سماع كلمة "سفره"، أهانت عليه لهذه الدرجة حتى يرحل بدون أن يخبرها؟!، تركها لنيران أفكارها وهواجسها التي تتآكلها ثلاثة أيام، ثم يوصل لها رسالة مع فتاة ما، والأدهى والأمرّ أنه يعتبر بأن طريقته هذه ليست باردة ومناسبة؟!

تجمّدت في مكانها غير مستوعبة ما سمعته للتو، تسلمت المغلف بأنامل ترتعش، تحدثت الفتاة ببعض الكلمات ثم ودعتهما وانصرفت، لكن داليا لم تفقه شيئاً ممَّ قالته.

بدأت تمطر، راحت الناس تتراكض بحثاً عن مكان يقيها من الماء، أمسكت إيناس بمعصم داليا وجرتها معها نحو السيارة سريعاً قبل أن تبتلا، أردفت إيناس بعد أن شرعت بالقيادة:

_ اهدئي يا داليا، ألن تفتحي الرسالة؟

كانت الأخرى تتأمل حبات المطر المتسارعة، تشعر بأن السماء على اتساعها حزينة لأجلها، على اتساعها تحتضن روحها الواهنة، وتشاطر قلبها المكسور في الدموع والبكاء.

أعادت إيناس سؤالها، فردت داليا بصوت متهدج:

_ما قيمة الاعتذارات التي سأقرأها بعد أرقٍ بكّاءٍ لثلاث ليالٍ متواصلات، خوفاً عليه؟! لم يقدّر محبتي ولم يعبئ بقلبي حين رحل بتلك الطريقة، تاركاً إياي وحيدة، أصارع ألف سؤال بلا إجابة، وجميع الاسئلة تنبض بالقلق عليه، بينما كان عليّ أن أقلق على نفسي في ذلك الحين، بعد كل ذلك ألا يحق لي أن أمزّق هذه الرسالة وأنثرها تحت دموع السماء دون قراءة ما فيها؟!

كانت تتكلم بوجع وهي تقلّب المغلف بين يديها، اختطفته إيناس منها مخبأة إياه في جيب معطفها، تعرف بأن داليا الآن في حالة صدمة وستندم بالتأكيد إن فعلت ما تهذي به الآن.

*****

في ركنٍ ما من هذا العالم، كان محبوساً في غرفة ضيقة، ومقفلة من الخارج، حيطانها متهالكة، تفوح منها رائحة الرطوبة، معتمة بفعل الجو الغائم تحتوي على كرة صغيرة في أعلاها، يدلف منها ضوء الشمس، ولكن حتى ضوء الشمس توارى واختفى هذا اليوم، لا شيء يستطيع فعله الآن سوى اجترار الذكريات، كان هاتفه قد سُحِب منه وتم رميه في مكان ما، يتذكر كيف خرج منذ بضعة أيام

ليجري اتصالاً مع والدته فتم القبض عليه وجره إلى هنا بوابل من الشتائم من قبل بعض الرجال، لا يُصدق بأن داليا هي التي تعاونت معهم ليقبضوا عليه مقابل أجرٍ من المال، لم يكن يدري بأنه رخيصاً عندها لهذه الدرجة، لا يفهم كيف كانت داليا بلسماً لجروحه والآن باتت جرحه الأكبر!.

*****

بعد انتهاء الجلسة، راحت شفق تسأل عن سبب ذهاب الطبيبة إلى قسم الشرطة، فأجابت:

_بصراحة يا شفق توصلت لشيء فظيع، عديني أن يبقَ سراً بيننا.

أومأت شفق فتابعت سماح:

_للأسف يا شفق أنك قد تسممتِ هنا في العيادة، ألا ترين أن السكرتيرة غائبة منذ يومين، إنها في النظارة عند الشرطة، اعترفت بأن هناك فتاة عرضت عليها المال مقابل أن تدعي بأنها مريضة، وأن ابنة خالها ستأتي للعمل بدلاً منها في ذلك اليوم، وقد فعلت دون أن تدرك حجم المشكلة، وتلك التي حالت مكانها هي من وضعت السم في العصير الذي شربته عندي، وقد وجدنا آثار السم في الكأس الذي عندي.

كانت شفق تستمع مشدوهة، سألت بعد برهة من الصمت:

_ولماذا؟ ما مصلحتها؟.

_للآن لا ندري يا شفق ما دوافعها، ولكن الشرطة تبحث عنها في كل مكان.

_أرجو أن يتم القبض عليها قريباً، استأذن الآن حضرة الطبيبة.

_رافقتك السلامة، لا تنسي مهمة اليوم يا شفق.

_حاضر.

*****

في المساء كان مازن يدّرس بدور ويشرح لها بعض المسائل الحسابية، سألها بعد طول شرح:

_فهمتي يا حلوتي؟

هزت رأسها نفياً، فضحك قائلاً:

_سأعيد ركزي معي جيداً.

كانت تغبط مازن على الحلم وطولة الباب التي يتمتع بها، بحيث يحتمل الكثير بوجهٍ باسمٍ، هتفت وكأنها تذكرت شيئاً:

_مهلاً يا مازن، لدي خبرٌ لك.

_علينا أن ندرس يا فتاة.

_ستندم أن لم تعرفه.

اومأ باستسلام لها لتتحدث، قالت بعيونٍ لامعة:

_وجدت شفق نصاً من كتابتك إضافة إلى قصيدة داخل كتابك.

_وماذا في ذلك؟

_أتت إلي وأخبرتني بأنها تشك في أن لديك قصة ما، كانت تبدو مهتمة.

_قصة ماذا؟

_لم أرَ كغبائك يا أخي، قصة ليلى والذئب، قال قصة ماذا قال! قصة فتاة قد سرقت قلبك.

رفع حاجباه تعجباً:

_شفق؟

_نعم لكنها لم تكتشف بأنها المقصودة في كل تلك العبارات.

دقت شفق الباب ثم دلفت وبين يديها صينية تحوي كأسين من عصير البرتقال، مردفة بنبرة دافئة:

_مساء الخير، تفضلا لقد عصرته بنفسي، وفقكما الله وقواكما.

قالتها بعد أن وضعت الصينية ثم خرجت.

عاد مازن لإمساك القلم والدفتر:

_هيا لنتابع.

_وماذا بشأن ما أخبرتك به يا مازن؟ ألن تثبت لها بطريقة ما أنها المقصودة.

_بدور حبيبتي ركزي في دروسك، أريدها أن تستكشف ذلك بنفسها.

*****

دلفت شفق لغرفتها بصحبة كوب من العصير وضعتها على المنضدة، وراحت تبحث عن الرسائل التي كتبتها لوالدتها سابقاً وعن التي كتبتها للطبيبة، كان عليها أن تقرأها هذه المرة باتزان وتفحصها لترى ماهي المشكلات التي كانت تعانيها وقتها، وتكتب الآن كيف عاجلت أو تجاوزت بعضها، وما الأمور التي قد تم تقبّلها وانتهاءها عن الرسائل التي كتبتها لوالدتها سابقاً وعن التي كتبتها للطبيبة، كان عليها أن تقرأها هذه المرة باتزان وتفحصها لترى ماهي المشكلات التي كانت تُعانيها وقتها، وتكتب الآن كيف عاجلت أو تجاوزت بعضها، وما الأمور التي قد تم تقبّلها وانتهاءها، وما الأخرى التي لا تزال ترافقها للآن مسببةً الألم، كانت مهمة صعبة

عليها، ولكن رحلة العلاج تحتاج تعب، أخرجت رزمة من الأوراق من الدرج، وضعتها بجانب العصير، ثم أخرجت دفترها الأصفر الصغير الذي تدّون عليه ملاحظات الطبيبة ونصائحها، وبعض العبارات الجميلة التي تدفعها للمضي قدماً ولتذكر وتتأمل رحمة الله الخالق، قرأت بعضاً منها، هي بالفعل تشعر بأنها قد تحسنت، وبعض العبارات الجميلة التي تدفعها للمضي قدماً ولتذكر وتتأمل رحمة الله الخالق، قرأت بعضاً منها، وقطعت على نفسها وعداً بأن تكون شجاعة حتى نهاية العلاج، أمسكت إحداها وراحت تغوص في السطور والكلمات.

"تنصُّ القاعدة دائمًا على أنه لا يوجد خسارة إلا خسارة الذات، وأن خسارة كل شيءٍ من أجل ذاتك تُعد انتصارًا لا هزيمة."

لقائله.

"طق.. طق.." تكررت الطقات مرة مرتين ثلاث، ثم أصدر الباب صريراً مزعجاً يوحي بوصول أحدٍ ما، تنبّهت كل حواس علي، أخذ يُحلق في الظلام، مستعيناً بالله من ظلمة أنفسهم، تقدم شخصاً ما يمشي بتؤدة ويوجه ضوء هاتفه على علي مردفاً، بعد أن أمسك بكفه يساعده على النهوض:

_بسرعة يا علي، والدك ينتظرنا.

أغلق الباب معيداً قفله بإحكام كما كان وانطلق معه للسيارة، بينما تحتل المفاجأة قسمات وجه علي، كان يظن أن والده وراء اختطافه ولكن طالما والده الذي أتى لينقذه من كان وراء ما حدث إذن؟!

جلس علي جوار والده في المقعد الخلفي، تنحنح عمر قائلاً بعد قليل وهو يربت على كتف ابنه: على كتف ابنه:

_اسمع يا بني، أنا لم أكن أقصد أياً مما قد مررت به، عند رحيلك مع آسيا من المزرعة، آلمني قلبي وقررت ترك العمل مع تلك العصابة التي تعمل بتهريب الممنوعات بجميع أنواعها، حينما جربت الوحدة أدركت خطأي وبأنني سأدمر بيتاً كاملاً، أرسلت رجالي في عملية بحث عنك، لكن رجال العصابة هددوني بك لو تركتهم، ومع الأسف كانوا أسرع مني في العثور عليك، فتسببوا لك بذلك الحادث، ومن ثم اختفيت أنت مجدداً، تراجعت عن قراري بترك العمل عندهم لأجل حمايتك، كنت أريد منكما العودة لمزرعتنا لأطمئن عليكما، رغم كل المتاعب والمشاكل التي افتعلتها إلا أنه يستحيل علي أن أؤذيك صدقني يا بني.

تصالحت مع أمك منذ عدة أيام وطلبت منها الإسراع في إجراءات سفرك عندها لتكون بمأمنٍ هناك، إنهم يحاولون بشتّى الوسائل التخلص منك أو استخدامك كرهينة لأفعل ما يطلبون مني، لذلك جهزت لك كل أوراقك لتسافر ليتما أنهي بقايا معاركي هنا ثم سيلتم شملنا من جديد.

ذهبا للبيت تناولا الطعام معاً وفتح كل منهما قلبه للآخر، ثم ناوله أوراقه اللازمة وجواز سفره لينطلق مسافراً مع ساعات الفجر الأولى.

*****

_صباح الخير، إلى أين أنتِ ذاهبة؟

_صباح الخيرات، شعرت بأن العالم كله ينادني لأنهض مع الصبح واستعيد إشراقي.

عادت لإكمال لف الحجاب وتابعت:

_سأذهب للجامعة، ومن ثم إلى الطبيبة سماح، جزاها الله خيراً لم تتركني طوال الأيام السابقة، وهي تقدم لي الدعم وتأخذ بيدي لأستطيع تجاوز تلك الصدمة.

مررت إيناس يدها على جبينها ذهاباً وإياباً، ونظرت لداليا قائلة وهي تحاول إبداء غيرتها:

_ووجودي لجانبك وقد فارقتِ بيتي وغرفتي وطهو أمي على مدار أسبوع كامل، ألم يؤثر فيكِ، أن أم وجودي وعدمه سواء؟!

وضعت داليا آخر دبوس، ثم اقتربت من إيناس طابعةً قبلة على خدها مردفة:

ـوكيف لا يؤثر فيني دفئك وحنانك وأنا في تلك الحالة الصعبة كيف؟! هذا شيء مؤكد لذلك لم أقله، وإني لا أجد طريقة مناسبة لشكرك يا أنيسة أيامي.

لولا الأيادي المحبة التي تأخذ بأيدينا عند التعب والسقوط، لما نهضنا من جديد، نحن مدينون بالشكر لكل من تحمّل حالنا السيء، موقناً بأننا أفضل من ذلك بكثير، مُذكراً إيانا بصفاتنا الحسنة الجميلة.

عرفت داليا بأن عليها إعطاء الحزن وقته وحقه حتى يمضي ومع ذلك عليها ألا تجعله يطول ويستولي عليها، لقد مرّت بمراحل الحزن الخمس التي حفظتها ورددتها سابقاً (الإنكار، الغضب، المساومة، الاكتئاب، التقبل)، ففي البداية أنكرت اختفاءه ولم تصدّقه، ثم غضبت لأنه رحل بتلك الطريقة، ومن فرط حبها تمنت أن يعود مقابل أي شيء، ستصفح عنه وكأن شيئاً لم يكن، لكنها أدركت أنه رحل بالفعل ، عندها أصيبت بفترة كآبة، لازمت السرير طوال الوقت، وشعرت بانعدام قيمة الأشياء وجدواها، كانت أياماً صعبة، ثم أدركت بأنه لا بدّ من التقبل، لن يكون باستطاعتها تغيير

أي شيء، وما حدث قد حدث، المستقبل أمامها وما كان سيبقى درساً، والحياة لا تتوقف على أي حال، لا يجب علينا أن نربط سعادتنا بأحد أو بشيء محدد، السعادة هي هبة من الله ودائماً يعوضنا الله بما هو خير ويجبر قلوبنا، وهي تنتظر ذلك أن يجبر الله قلبها بمن يستحقه.

هذه المرة تعلمت داليا كيف تداوي نفسها عوضاً عن غيرها، فهمت أن الأمر يحتاج شجاعة كبيرة لمتابعة الحياة وفهمها، يحتاج الأمر شجاعة حتى تُبعد اليأس وتتحلّى بالتفاؤل، ويحتاج الكثير والكثير من الاستعانة بالله لتقدر على تخطي ما مضى بقلبٍ شغوف سليم، قد تتطلب مراحل الحزن الخمس سنوات حتى تمضي كلها وتنتهي، كل شخص حسب جرحه وشخصيته، لكن داليا بطبيعة الحال كانت إنسانة إيجابية باسمة، فلم تسمح لتلك الفترة بأن تطول، وأعلنت عودة ابتسامتها البريئة من جديد.

*****

كان منير في طريقه للعمل عندما رن هاتفه عدة مرات، تجاهل عمداً في البداية ثم أخرجه من جيبه ليرى من ذلك المزعج، الذي أفسد عليه تأمل السماء والاستمتاع بساعات الصباح الأولى.

كان رقماً غريباً، فتح الخط وألقى التحية، فوجئ بسماع صوت صاحب المكالمة، سأل بنبرة تحمل الشوق الحار:

_كيف حالك يا علي؟ أين أنت؟

_بخير يا صديق، صحوت اليوم مشتاقٌ لكل شيء، أحن إليك وإلى ساعات العمل المجهدة، والسهر المليء بتناول الطعام وتبادل القصص والحكايات نحو الماضي والمستقبل.

_لو تعلم مدى كآبة العمل والليل والطعام بدون رفقتك، حتى أقراص الفلافل باتت كئيبة في رحيلك، أين اختفيت يا رجل؟

_إنها قصة طويلة، طويلة جداً يا منير، سنتحدث مساءً لأخبرك بكل شيء، لنسهر مثل الأيام الخوالي ولكن بشكل إلكتروني.

_حسناً، اتفقنا متشوق لذلك، صحيح لا تنسَ أن تكلم مخطوبتك، كانت في حالة يرثى لها يوم اختفاءك.

_داليا؟

_وهل لديك أكثر من مخطوبة مثلاً!، طبعاً هي، كانت منهارة بالكامل يوم أتت مطعمنا تسألني عنك.

صمت علي تماماً، إذ لم يستوعب ما سمعه للتو، تابع منير:

_استأذنك الآن، أكاد أصل للعمل.

_رافقتك السلامة.

أغلق علي الخط، وأغمض عينيه مسترجعاً ذكريات يوم اختطافه، وكيف كانوا يتحدثون عن تسديد المبلغ للفتاة التي ساعدتهم في الوصول إليه، حينها سألهم عن تلك الفتاة، فكُسِرَ قلبه وتناثر لرؤية صورة داليا بين أيديهم، باتت ذكرياته معها كالزجاج تجرحه كلما مرت بخاطره، والأقسى أنها لا تغيب!

يفكر الآن، لماذا انهارت وبكت ذلك اليوم بعد أن فعلت ما فعلته؟!

كان يشعر بأن هناك جزء من الصورة مفقود، جزء لا يمكن فهم ما جرى لو لم يتم العثور عليه.

"ولكن أيكفي أن نحب شيئا ليصير لنا؟"

- مي زيادة

تململت داليا في جلستها وهي تنتظر المريضة التي أخبرتها سماح بأنها ستُشرف على حالتها من الآن فصاعداً، كانت سعيدة بعودتها للعمل، حملت هاتفها ودلفت لتطبيق الفيسبوك لتبحث عن صفحة المريضة التي لا تعرف سوى اسمها والقليل عن حالتها للآن، إن الناس تبدو شفافة أحياناً من وراء الشاشة، بإمكانك فهم شعورهم وطريقة تفكيرهم من خلال منشوراتهم والصفحات التي يتابعونها، بينما قد لا تكتشف ذلك ولو جلست معهم ساعة كاملة، بالصدفة رأت حساب علي ثابتٍ هناك في سجل البحث، شعرت بنخزة في فؤادها، بدا الوقت وكأنه قد توقف لهنيهة من الزمن، لم تستطع كبح جماح فضولها كالعادة، وضغطت للدخول إلى الصفحة المهجورة منذ مدة، لم يكن هناك سوى منشورٍ واحد منذ يومين، كانت قصيدة لفاروق جويدة.

راحت داليا تقرأها وتكررها:

"بقايا.. بقايا

لماذا أراك على كل شيء بقايا.. بقايا؟

إذا جاءني الليل ألقاك طيفاً..

وينساب عطرك بين الحنايا؟

لماذا أراك على كل وجه

فأجري إليك.. وتأبى خطايا؟

وكم كنت أهرب كي لا أراك

فألقاك نبضا سرى في دمايا

فكيف النجوم هوت في التراب

وكيف العبير غدا.. كالشظايا؟

عيونك كانت لعمري صلاة..

فكيف الصلاة غدت.. كالخطايا..

* * *

لماذا أراك وملء عيوني

دموع الوداع؟

لماذا أراك وقد صرت شيئا

بعيدا.. بعيدا..

توارى.. وضاع؟

تطوفين في العمر مثل الشعاع

أحسك نبضا

وألقاك دفئا

وأشعر بعدك.. أني الضياع

* * *

إذا ما بكيتُ أراك ابتسامة

وإن ضاق دربي أراك السلامة

وإن لاح في الأفق ليل طويل

تضيء عيونك.. خلف الغمامة

* * *

لماذا أراك على كل شيءٍ

كأنكِ في الأرضِ كل البشر

كأنك دربٌ بغير انتهاءٍ

وأني خلقت لهذا السفر..

إذا كنت أهرب منكِ .. إليكِ

فقولي بربكِ.. أين المفر؟!"

ندت من عينيها دمعة، سارعت لمسحها، شعرت بالألم، وجدت نفسها بين السطور وكأن الكلمات تصف حالتها، ولكن أيعقل أنه يقصدها؟ ماذا فعلت معه لتكون ذكراها شجية بالحب والحزن هكذا معاً، أليس هو من تخلى عنها؟!

قاطع أفكارها صوت طرقات الباب، فأغلقت الهاتف، واستقبلت المريضة بلطف وبوجه ذا ابتسامة مصطنعة جاهدت لرسمها على شفتيها.

*****

_أخيراً أتيت.

_آسفٌ لتأخري، كيف حالك؟

جلست شفق في المقعد الخلفي، نحت حقيبتها جانباً، أغلقت النافذة، أردفت:

ـ كان يوماً شاقاً جداً، الحمد لله بخير، لكنني جائعة، ياه الجو يزداد برودة قبيل الغروب.

نزع لفحته عن عنقه واستدار يناولها إياها قائلاً:

ـضعيها، ستمنحك بعض الدفء.

ـلا يا مازن، ستبرد دعها أنا بخير، ثم إن حجابي يعمل عمل اللفحة، لا تقلق.

رماها نحوها واستدار ليشرع في القيادة سألها:

ـمتى جلستك عند الطبيبة؟

ـبعد ساعة تقريباً.

أجابته وهي تلفها حول رقبتها.

ـإذن لن نعود للبيت.

رفعت حاجباها استغراباً من قوله، فتابع:

ـعندنا ضيوف في البيت، لن تأخذي راحتك، ثم هل ستعودين لتخرجين بعد ساعة؟! ليس جيداً بالطبع، أخبريني الآن ماذا تحبين أن نأكل؟.

ابتسمت مفكرة:

_أي شيء، أكاد أموت جوعاً.

صف مازن السيارة في ركن ما، ثم نزل ليشتري الطعام، حنت شفق رأسها على كتفها، مستمدة الدفء من لفحة مازن فتسللت إليها رائحة عطره، أحست وكأنها تستند إلى كتفه هو، خالجها شعورٌ غريب فأغمضت عينيها جاهلة إذا كان سبب الإغماض هو لجعل ذلك الشعور يدوم، أو لجعله ينتهي!.

عاد مازن معه قرص من البيتزا وبعض من البطاطا المقلية واتجه لمنطقة مرتفعة، بإمكانهما رؤية البحر من هناك، سألها:

_نخرج أم نأكل هنا ونفتح النوافذ لرؤية البحر؟.

_بالطبع سأخرج، هيا بنا.

كانت بسمتها ملأ وجهها، تأمّلت غروب الشمس فوق البحر، تأملت جمال الشفق الأحمر وهو يرتسم أعلى الأفق ويضيف ألوانه الدافئة بلطف للون برودة السماء، كان المشهد ساحراً، أُعجبت شفق بهذه المفاجأة الجميلة وملأت قلبها السكينة، أردفت:

_لم أرَ في حياتي كهذا الجمال الأخّاذ!.

_بالفعل، مهما رأيتِ جمال الشفق وسحره، ستشعرين بأنك ترينه للمرة الأولى في كل مرة، بحيث تتأملينه بشغف وحب بلا كللٍ أو ملل.

كان يقصدها هي بالمرتبة الأولى، لكنها لم تنتبه لذلك وظنت بأنه بالفعل يتحدث عن المشهد، لأنها كانت مأخوذة به تماماً.

أردفت بعد قليل وهي تتناول قضمة من قطعة البيتزا:

_هل أخبرك شيئاً يا مازن؟

_تفضلي.

_نجحت اليوم في اختبار صعب وبتقدير ممتاز! أشعر وكأنني احتفل بذلك.

ابتسمت وتابعت:

_شكراً لك يا مازن.

رد قائلاً بحفاوة:

_حباً وإكراماً يا ابنة العم، ألف مباركٍ لكِ، من نجاح لأعلى إن شاء الله.

توقف قليلاً ثم تابع مازحاً:

ـوأنا جاهز لاحتفل معكِ كل مرة، ولكن بشرط أن يكون الطعام من إعدادك في المرة القادمة، اتفقنا؟!.

نظرت إليه بصمت واكتفت بابتسامة فحسب، شعر حينها بأن العالم كله يشاركها ابتسامتها الوضاءة، بدءاً من قلبه حتى البحر والسماء والطيور والغيوم، وانتهاءً بنسمات الهواء الباردة التي تداعب وجهيهما.

*****

بعد أن سمع منير قصة عليّ، علم بأن هناك سوءَ فهمٍ كبير، أشفق على صديقه المقرب مما قد مر به، وعد علي بأنه سيحاول معرفة حقيقة داليا، وهو واثقٌ بأن هناك خطأ وخداع، ولو تأكد بأنها بريئة فإنه سيحاول شرح الأمور، عليهما أن يتناقشا ويضعا النقاط على الحروف، المشاكل لا تحل بطيها هكذا ونسيانها، عاتب صديقه على تصديقه لكلام الغرباء دون أن يتحاور مع الفتاة ويفهمُها، وشعر علي بغلطته، كانت سهرة عامرة سكب كل منهما أحاديثه ومشاعره فيها للآخر، لم ينم ليلتها أي منهما، الأول يعاتب نفسه وينتظر بالدقيقة نتائج ما سيصل إليه صديقه، والآخر انتظر شروق الشمس

انتظاراً للذهاب لعيادة الطبيبة إيناس لعلها توصله إلى داليا ليستفهم منها الأمر.

كانت إيناس قد عادت إلى بيتها أخيراً، نهضت بتكاسل كارهةً مفارقة السرير الدافئ والوسادة المريحة التي هجرتها عدة أيام، مهما نشعر بالراحة عند الناس إننا لا ننام بعمق إلا بيوتنا وعلى وسائدنا الخاصة التي نشعر وكأنها صديقة وفية لا تُستبدل بأي حال، كيف لا وهي التي تستمع لدعواتنا، وهمساتنا، ودمعاتنا قبل النوم، كيف لا وهي الشاهدة الوحيدة على الحال الذي لا نود بأن يرانا أحد به إلاها، هي صندوق أسرارنا وأحلامنا وأرقنا وغيره الكثير.

جهزت نفسها واشترت قهوتها وانطلقت للعمل، ما إن وصلت حتى وجدت منير هناك، جالساً في غرفة الانتظار، ما أثار استغرابها أن نسيم لم تكن معه، وكذلك فليس هناك موعدٌ سابق له هنا، أردفت عند دخولها:

_صباح الخير أ.منير.

_صباح النور حضرة الطبيبة، لو سمحتِ لدي أمرٌ هام أحدثكِ به.

راحت تتساءل عن هذا الأمر الهام، قالت بعد تردد دام لبرهة من

الزمن:

_تفضل.

_ماذا تعرفين عن داليا خطيبة علي؟

_لا أريد الحديث عنه، يكفي ما سببه للفتاة من ألم قد تخلى عنها ورحل غير آبهٍ بمشاعرها ولا بدراستها ولا بكلام الناس عنها، ماذا يريد الآن؟ ماذا لديه بعدُ من أذى؟!

_علي لم يتخلَ عنها، هي التي فعلت، وشت بمكانه لأولئك الرجال مقابل المال.

_أوه يا للدراما! كم استغرقت من الوقت أنت وصديقك لتأليف هذا السيناريو؟ ثم عن أي رجال تتحدث أ.منير؟.

_الرجل قد تم اختطافه وإخباره بأن صديقتك هي من وشت بمكانه، أظن بأن هناك سوءَ فهمٍ فظيع علينا النقاش لأجله.

_صدقاً؟

_نعم حضرة الطبيبة، ليس لدي مصلحة للكذب على أي حال، ثم إني قد قمت بتسجيل المكالمة وبإمكانك سماعها لو أردتِ.

"السلام عليك يا أبتي، سلاماً طيباً مليئاً بالمحبة الدافئة، محملاً بشوقي إليك.

دعواتي لك لا تتوقف ولا تفتر، وقد تصدقت مؤخراً لأجلك، أنت حيٌّ في فؤادي على الدوام يا أبتي.

أنا بخير والحمد لله، أدمنت عادة الكتابة إليك، أصبحت فقرتي المحببة، أن اختلي بنفسي، وأحمل قلبي وقلمي لأكتب لك كل الأشياء التي أود منك معرفتها.

عملي بالتدريس جيد جداً، وهو يتطور يوماً بعد يوم، أخبرتني الطبيبة بأن الشرطة قد ألقت القبض على الفتاة التي وضعت السم في العصير، واعترفت بأنني لم أكن المقصودة وحدث ذلك عن طريق الخطأ، بينما المقصود شاب يدعى علي يتعالج عند الطبيبة، وقد تسببت في اختطافه أيضاً، اعترفت تلك الفتاة بقائمة طويلة من الأشياء الغير إنسانية التي قامت بها، الشرطة الآن تبحث عن العصابة المتورطة معها هذه الفتاة، أدعو الله من كل قلبي أن يتم القبض عليهم جميعاً.

حالة علاجي أفضل الحمد لله، كنت قبل قليل أقارن بين مقولتين واحدة عندي، وقد رسلتها مرة للطبيبة، وهذه هي:

(إن الطفل الذي أساء له أبواه لا يتوقف عن حبهما، بل يتوقف عن حب نفسه).

فرسلت لي الطبيبة مقولة أخرى من أحد كتبها وهذه هي:

(ولكن لا يجب أن يكون النقص في التربية عذراً.. لأن نجبن ونستكين للخوف و للكوارث التي تحيق بنا، فإن لم نكن قد تعلّمنا الشجاعة وتعودنا عليها خلال مرحلة الطفولة فإنه يجب علينا أن نتعلمها ونشرع في التعود عليها، وأن نغالب المشاكل والصعوبات والكوارث وألا نعترف بالهزيمة أبداً).

وأخبرتني حينها بأن أمي وأبي قد تعرضوا لظروف قاسية بالتأكيد، ربما لم يعرفا كيف يعبران عن حبهما لي، لكنهما بالطبع يحملون الكثير من الحب لي، وأنهم قد تلقوا تربية سيئة غير متكاملة، وأن سلسلة التربية تلك قد تكون متوارثة عبر الأجيال، فكل أسرة تربي أولادها على الطريقة التي تربت هي عليها، وبالتالي فأنا الآن لدي خياران، إما أن أبقى غاضبة هكذا وساخطة على حياتي، راضية بدور المظلومة، ضحية التربية السيئة ومستلمة للضعف الذي أنا به، وإما أن أكون قوية وشجاعة فأرى الصورة كاملة، وأتعاطف معهما فأعذرهما وأصفح عمَّا مضى، ثم أكوّن التغيير الإيجابي وادع سلسلة التربية المتوارثة عبر الأجيال تتوقف عندي، فأتعافى عنها واتعلم كيف أربي أطفالي تربية صحية جيدة.

قالت لي حينها:

"أعلم بأن رؤية الصورة الكاملة هذه مزعجة ومؤلمة، لكن يجب علينا ذلك.

شفق أتأتين لنرى الصورة كاملة ونكون آخر جيل يستلم نظام التربية السيء ذاك؟

أتأتين لنفتح صفحة جديدة، ونعذرهم ونعذر أنفسنا ونكون شجعان؟

أتأتين نتغير ونكون نحن التغيير؟!

تعالي لنُسامح من رحل، ونصدق بأن الحل المريح مع من بقى هو الحب والرحمة، شفق إن الكره سهل، لكن التسامح والحب يحتاج قوة، وبهما تُشفى الجراح داخلنا، بينما الغضب والغل سيأكلك أنت قبل كل شيء.

استعيني بالله وتعالي لنبدأ".

أكتب الآن وأنا أشعر بالكثير من التغيرات الإيجابية التي طرأت على شخصيتي، أكتب الآن وأنا ممتنة لهذه الطبيبة كثيراً، ولكل من وقف معي، وأحمد الله الذي قوّاني وكان معي في كل لحظاتي الصعبة، وأرجوه بأن لا يترك قلبي ولا يكلني إلى نفسي طرفة عين، ويُنير طريقي بنوره على الدوام.

هذه كل أخباري في هذه الأيام، وأعدك أني لن أتوقف عن الكتابة إليك.

رحمك الله برحمته التي وسعت كل شيء يا والدي.

ابنتك التي تحبك."

أمّا الآن

لو جِئت لي بأسَف العالم أجمع

لا أريدك.

_هدير مدحت.

كانت الفتيات يتحلقن في دائرة جانب المدفأة، يضعن بعض الأطعمة والفواكه حولهن، وفي داخل الدائرة توجد علبة المياه، ليبدأن سهرتهن الجميلة المليئة بالأنس والحب كالعادة.

كانت إيناس ساهمة في أفكارها لا تدري كيف ستفتح الموضوع مع داليا، خائفة عليها ومن ردة فعلها، أردفت حنين:

_أوه، دوري لأسأل داليا.

أمسكت الورقة التي كن قد دونَّ عليها بعض الأسئلة لكي يستعملونها عندما لا يجدن سؤالاً حاضراً في أذهانهن.

_هل هناك ما تنتظرين حدوثه بفارغ الصبر؟

سألت حنين، فابتسمت داليا ببرود تتذكر عندما سألتها ذات السؤال حينما كانت تنتظر رسالة علي في أيام الصيف، تناولت هاتفها وأضاءت شاشته موجهةً إياها إلى حنين مردفة:

_أن ينتهي تحميل هذه الرواية بخير وسلامة، منذ الصباح وأنا أحاول تحميلها.

_داليا هناك رسالة من الماسنجر تتوسط شاشة الهاتف، بشأن الرواية اطمئني تبقّى القليل فقط ليتم التحميل.

طالعت داليا هاتفها بلا مبالاة، لتجد رسالة من علي، تسارعت دقات قلبها وشحب وجهها مردفة:

_إنه علي!.

هناك صدف عجيبة بكل معنى الكلمة، كيف يُعاد طرح السؤال فتأتي الإجابة ذاتها رغم كل التغيرات؟!

ارتبكت إيناس وضربت خدها مرتين تحاول استجماع طاقتها للحديث، سألت حنين:

_ماذا يريد؟

_يطلب فرصةً للحديث والتفاهم، واعتذر بطريقة أدبية منمقة، عازفاً على أوتار عاطفتي لأسامحه، ولكن ما قيمة الاعتذار؟

كتبت له شيئاً على عجل، ثم رمت الهاتف بعيداً على الأريكة.
صاحت إيناس:
_هناك ما عليكِ معرفته يا داليا، لا أعرف كيف ابدأ ولكن اسمعي بقلبك وعقلك.
تناولت حنين قطعة من التفاح نادمة على السؤال الذي طرحته، نظرت داليا لإيناس المتوترة مردفة بحنق:
_ما بك؟ أتُخفين عني شيئاً ما؟.
ضغطت إيناس على المكالمة الهاتفية المسجلة بين منير وعلي، قد أرسلها لها صباحاً، ثم راحت تقص عليها ما سمعت وعلمت.
على الجانب الآخر كان علي ينتظر ردها بفارغ الصبر، بعد أن تحدث مع منير وعلم بأنه قد خُدع وأن داليا لا علاقة لها بأي شيء، كان يظن أن تلك الصديقة التي أخبره منير بأنه حدّثها صباح هذا اليوم، قد أخبرت داليا بكل الأمور، ورسالته الحالية ستجعلها ترد مباشرة، لم يعد يطيق شوقاً وصبراً لمحادثتها وسماع كلماتها، فوجئ بردها بعد ربع ساعة بعبارة للكاتبة (ليال شمس) تقول:
(ما عدت أرضى باعتذارك أعترف
جرحي عميق لا يداويه الأسف!).

ثم قامت بحظره.

شعر وكأنه يختنق، لم هناك المزيد من الهواء في الجو، رمى الهاتف فوق السرير بعصبية، ونهض مغادراً المنزل ليتمشى قليلاً، ويفكر بوضوح، لم يعبأ بالمطر الذي ينهمر بغزارة، كان يرجو أن يبتل من الداخل أيضاً لتغسل هذه القطرات قلبه وتريحه.

*****

كان الربيع على الأبواب، والبرد قد بدأ ينسحب بتمهل ليحل مكانه الدفء اللطيف، راحت الأشجار تورق من جديد، وازدانت الأرض بشتى ألوان الأزهار، معلنة نهاية الذبول وبداية التألق والجمال، باعثة على النشاط، وكأنها تقول لنا هيا انهضوا وأزهروا فعواصف الحياة لا تدوم مهما طالت ولا بد من ربيع يحيي قلوبكم من جديد.

دلفت إيناس لعيادتها تدندن ببعض الكلمات من قصيدة ما، فاكتسى وجهها احمراراً لرؤية منير جالساً بانتظارها يقرأ أحد الكتب، لم تره منذ عدة أشهر حينما أخبرته أن داليا ترفض الصلح وبأن اعتذار علي أتى متأخراً جداً بغض النظر عن أي ظروف كان يمر بها.

_السلام عليكم، ما بكِ وكأنك رأيت عفريت من الجن؟

ضحكت مرحبة به، تابع:

_أريد مساعدتك في أمر هام.

_أ.منير أنت تغيب وتغيب، ثم تأتي ومعك أخبار فظيعة كالصواعق.

_عندي الكثير من الأخبار البسيطة لو أردتِ، لكن لكل شخص خبرٌ على قدر شخصيته.

_تقصد بأنني صاعقة؟

_ليس كذلك، إن كنت لا تريدين المساعدة فلا بأس سأنصرف.

_حسناً، تفضل.

_علي سيصل عصر هذا اليوم قبيل الغروب تقريباً، وهناك تحدٍ بيننا.

_وما هذا التحدي؟

_كان حزيناً لأن داليا لا تعرف بمجيئه ولن تأتي لاستقباله ولا يدري كيف سيعود لرؤيتها، فعرضتُ عليه بأن أحاول الحديث معكِ لنحاول إقناعها بالذهاب إلى المطار في ذلك الوقت، لكنه رفض وأخبرني بأنه يعرف داليا جيداً، وأنها ذات إصرار عجيب،

فلو كانت لا تريد رؤيته لن تأتي مهما حاولنا، شعرت بأنه يسخر من قدراتنا فتحديته بأننا سنجعلها تأتي وها قد أتيت لأخبرك واطلب منك المساعدة، فما رأيك؟

_أنتما تتحديان بعضكما وتقع على رأسي في النهاية، رائع!

ثم سرحت قليلاً، جاء ليتحدث فقاطعته قائلة:

_حسناً، ما المقابل لو جعلتك تفوز بهذا التحدي؟

_أجمل وجبة فلافل من صنع يدي.

_اممم، أعتقد بأن هذا أمر لا يفوّت، موافقة إذن.

شكرها منير واستأذن منصرفاً، راحت إيناس تفكر في خطة ما لإقناع داليا بمرافقتها للمطار، بالطبع لن تقتنع لو علمت بمجيئ علي، وستدبر خمسين حجة كي لا تذهب، لا بأس فهي ماهرة بحياكة الحيل، لمعت في رأسها فكرة فابتسمت وسارعت للاتصال بداليا.

" إن الأشياء المُقدرة لك،
حتى وإن سُلبت منكَ، تعود إليك."

كانت عائلة أبا مازن في رحلة إلى شاطئ البحر، للتمتع بدفء الشمس وأجواء الربيع، كانت كل من بدور وشفق تجلسان على رمال الشاطئ وتتأملان مشهد الغروب وهما تتحادثان في شتى الأمور، أقبل مازن نحوهما قائلاً:

_هل تسمحان لي بمشاركتكما هذه الجلسة الأنيسة.

_طبعاً، تفضل.

أردفت شفق بينما ردت بدور باستهزاء:

_لا إنها أحاديث فتيات، اذهب لتكمل مشيتك على الشاطئ كما كنت تفعل، أو أذهب لتكتب لفتاة الأحلام كما تفعل عادة.

ضحك مازن وجلس لجوارها هامساً في أذنها: "فتاة شريرة".

اقترحت شفق عليهم أن يلعبوا لعبة الصراحة، فوافقا سريعاً، نهضت سريعاً لتجلب عبوة مياه، جلست قبالتهما وأدارتها لتبدأ اللعبة، كان دور بدور لتسأل مازن، نظرت إليه نظرة ذات معنى، كانت مصرة على أن تكشف أمر حبه لشفق الآن، فهي نجولة ولا تفكر سوى بنفسها وبتطويرها وبدراستها، والآخر لا يزال يؤجل خوفاً من ردة فعلها، ويحتج بأنه ينتظر الوقت المناسب.

سألت بدور:

_ما اسم الفتاة التي تحبها يا مازن؟

شعر مازن بأن بدور لا تنوي خيراً، ابتسم مجيباً سؤالها بسؤال:

_من أخبرك بأنني أحب أصلاً؟

تبادلت نظرة مع شفق وضحكا معاً، تابعت بدور:

_الأمر واضحٌ جداً، صحيح يا شفق؟

_صحيح، تبقى فقط أن نعرف من سعيدة الحظ تلك، هل نعرفها؟

أجابت شفق فأكملت بدور:

_أين تلاقيتما؟

ضحك مازن قائلاً:

_بسم الله عليكما، شيئاً فشيئاً، سؤالٌ واحدٌ فقط الآن، اسم من أحبها موجودٌ في السماء.

(شمس، قمر، شروق، غروب، غيمة، نجمة، ضحى، ضياء، سحر) راحتا ترددان معاً اسم كل ما تعرفانه عن السماء، وهو يهز برأسه نفياً، كانت بدور تتغابى لتقول شفق الاسم، زفرت بدور وتعالى فضول شفق، فاستدارت لترى السماء مرة أخرى عساها تجد الاسم، سحرها مشهد الشفق الأحمر وهو يعلو الأفق بتألق فريد وينسجم مع بقية ألوان السماء بتناسق عجيب، هتفت بتهور:

_إذن، شفق!.

ضحك كل من مازن وبدور، بينما صبغت وجنتا شفق بلون أحمر كذلك المشهد، وابتسمت تخفي وجهها بين كفيها.

صفقت بدور:

_أخيراً، أخيراً، أنا سعيدة جداً سأذهب لأجلب شيئاً نأكله.

مضت بدور، فأردف مازن بخفوت وبنبرة ملؤها الحب:

_أصبتِ يا شفق.

كانت نجلى جداً وغير قادرة على رفع وجهها فمازن قبالتها تماماً، تمنت أن تبتلعها الأرض فجأة، راحت تتذكر كل المواقف التي

ساندها فيها مازن وكان لجانبها، فهمت الآن سبب غضبه من براء، وخوفه الكبير عليها، عيناه الدمعتان يوم بكت أمامه، ألواح الشوكولا والطرف التي يلقيها حينما يلحظ صمتها وحزنها، أيعقل أن الأمر كان واضحاً لهذه الدرجة وأنها لم تفهم حتى الآن!.

_أتعلمين كم أحبك؟

شعر بأن اللحظة مناسبة للبوح، فأخرج أوراق قلبه ليفتحها أمامها، نهضت شفق واقفة، اعتقد بأنها غاضبة منه وستهرب، لكنها مضت بضع خطوات للوراء ثم عادت لمكانها القديم عندما كانت جالسة مع بدور، أي بجانبه ولكن بينهما مسافة بعيدة قليلاً، كان يُخجلها كونها تجلس قبالته مباشرةً وأيضاً لن تستطيع فهم ما سيقوله عندها وهو ينظر إليها، قاطعت الصمت الذي خيّم على الأجواء بسؤالها الخافت:

_ كم؟

تنفس بعمق، كان يشعر بأن الصمت لن ينتهي، أو بأنها صمتت لتغير الموضوع، لكنها سألت! هذا يعني قبولها، ابتسم قلبه ووجهه وعيناه، مردفاً:

_أحبك كحب البحر للسماء، هل تعرفين كيف يحب البحر السماء؟

أتت بدور معها قطع من البسكويت المملح، أردفت:

_قلبيكما كثلج الشتاء ذهبت وعدت ولا تزالان على صمتيكما!

لو كنت أنا لما استقر لساني في حلقي لكثرة الكلام.

جلست في المنتصف وتابعت:

_لا، لا نعرف، أخبرنا كيف يحب البحر السماء؟

_يرافقها على طول الأفق، ويعكس صورتها البهية في دواخله، فتخجل ليظهر الشفق الأحمر اللطيف على مُحيّاها.

تهيج أمواجه بجنون حينما يرى دموعها اللؤلؤية تنهمر، ويهدأ حينما تصفو، فيعمهما هدوءٌ يطمئن النفوس الناظرة إليهما، يبوح لها بأسرار البشر الغارقة جوفه، وتخبره بأسرار نجماتها المدفونة عمقها، يتبدل حالهما معاً، حبَّ البحر للسماء واسع جداً، يضم العالم أجمعه ولا ينتهي!.

تململت داليا في وقفتها مردفة:

_إيناس منذ ساعة ونحن هنا، أين ابنة خالك للآن؟

_لا أستطيع العودة بدونها يا داليا، اصبري قليلاً، ها قد بدأ ركاب الطائرة التي هبطت قليل يتوافدون، أمسكي هذه الأزهار عني، سأذهب لأرى الأمر وأعود.

كانت إيناس تفكر في ردة فعل داليا، لا تعلم بأن الأخرى تشتاق إليه كثيراً لكنها تخفي ذلك، تشعر بتأنيب الضمير لإخفاء الأمر عن داليا وتحاول الهرب فراحت تبحث بعينيها عن منير، يا ترى أين هو؟

نظرت داليا إلى الأزهار وقربتها إليها تشتم عبيرها الأخاذ، ثم أخرجت هاتفها تطالع الساعة فقد بدأت تشعر بالضجر، أعادته لجيبها، رفعت ناظريها للأمام بحثاً عن إيناس، فالتقت عينيها بعيني علي، خفضت رأسها سريعاً وأغمضت مقلتيها بقوة، أيعقل بأن الإرهاق جعلها تتخيل وجوده هنا؟!

كان يقترب منها بتؤدة وبخطى متوازنة مبتسماً، يقول في نفسه: "منير قد فعلها، فاز التحدي!"، اقترب منها ومدّ يده ساحباً باقة الأزهار

ثم قال مردفاً:

_لا أستطيع التعبير لك عن بهجتي لرؤيتك هنا.

رأت ظله الطويل أمامها، شعرت بألم أيسر صدرها، جف حلقها لسماع صوته، لم تكن تستوعب ما يحدث، استجمعت أنفاسها رافعة رأسها إليه.

_هل سامحتني؟

كانت شجاعة ومؤمنة، تعرف بأن عليها أن تجعل قلبها نقياً من الحقد والغل، فهي قد سامحته منذ مدة، لكنها لم تستطع إخباره بذلك، تريد أن ترى مدى تمسكه بها، وتنتظره ليفعل ما يثبت صدق شعوره، بقيت صامتة، فسأل ثانية:

_داليا، صدقيني لم أرحل إلا مجبراً، كانت الظروف أصعب ممَّ تظني، خسرت هاتفي ورقم هاتفك، رسالتي التي وصلتك لستُ من كتبها، أنتِ أكثر من مجرد طبيبة، هل تعلمين بأنك صالحتني مع الحياة، وبأن نسيانك كان مُحالاً حتى لو ثبت ما كانوا يقولونه عنكِ!

سكت برهة وأكمل بنبرة شجية:

_ماذا أفعل لتعود شمسي إلي، وتسمعني دفء كلماتها؟ ماذا أفعل لتعذرني؟

قالت بصوت متهدج محنية الرأس:

_لا أستطيع ألا أسامحك، أتعلم يا علي؟

بإمكاننا تجاوز الألم والخيبة، بإمكاننا تجاوز الفشل والإخفاق والمحاولة مجدداً، بإمكاننا تجاوز كل شيء.

خاف من أن تكون قد تجاوزت رحيله ولم تعد تأبه لعودته، تابعت بعد أن رفعت ناظريها إليه، كانت تشوبهما بعض الدموع:

_بإمكاننا تجاوز كل شيء، إلا مشاعر الحب الصادقة التي منحناها، ومُنحت لنا.

أقبلت والدة علي نحوهما، واقتربت من داليا، حاضنة إياها بحرارة مردفة:

_ما أجملك يا بنتي!، علي حدثني عنك طويلاً.

ابتسمت داليا بين دموعها وهي تنظر لعلي الذي يتابعها بعيونه ويبادلها الابتسامة المتأثرة الدافئة.

صفقت إيناس التي تراقب عن بعد ثم هتفت بمرح:

_مرحى، يبدو بأن القلوب قد تصافت، أريد جائزتي أيها الطباخ الماهر.

ضحك منير مجيباً إياها:

_تستحقين أكثر، هيا بنا.

*****

بعد قليل كانت داليا معهما في السيارة، متجهين نحو القرية وبالذات إلى بيت أم خالد التي تستعد منذ الصباح لاستقبالهم، شغّل علي قصيدة "من اليوم تسامحنا" بصوت عامر عطايا:

من اليوم تسامحنا ونطوي ما جرى منا

فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا

وإن كان ولا بدَّ من العتب فبالحسنى

فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنا

من اليوم تسامحنا ونطوي ما جرى منا

فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا

كفى ما كان من هجرٍ فقد ذقتم وقد ذقنا

فما أحرى بأن نرقى إلى وصلٍ كما كنا

تمت بعون الله.

19/12/2022

في النهاية أريد أن أوضح بأن ما كتبته عن الشعور بالاستحقاق وعن المواقف غير المنتهية وسلسلة التربية السيئة عبر الأجيال، مرجعها هو كتاب الخروج عن النص للدكتور محمد طه جزاه الله خيراً.

وآمل بأن تجد بعض الرسائل التي كتبتها عبر هذه الرواية، الطريق إلى قلوبكم مباشرة، إنني أعلم تماماً بأن هذا العمل ليس ممتازاً وكاملاً، بل وربما فيه العديد من الأخطاء والنقص، ولكن يكفي بأنني حاولت، ونخورة جداً بهذه كبداية، أحمد لله الذي أعانني لذلك وأسأله القبول. أريد أن أشكر كل من دعمني بكلمة ثناء وتشجيع وأخبرني بأن لي مستقبلٌ مع القلم.

شكراً لأختي بطلة حياتي وروايتي، فقد كانت ورقتي البيضاء الأولى، التي أخبرها بما أريد أن أكتب، فتستمع إلي وتنصحني وتشاركني رأيها وأفكارها بكل حب.

شكراً داليا.

شكراً للفتاة التي خطت لي مكتوباتي من قصص قصيرة، بخطها المميز على دفتر ما وأهدته لي، لتمنحني سعادة كتابي الأول الذي أحلم به، محظوظة جداً بكِ.

شكراً إيناس.

وشكراً للنجمة التي أضاءت الكثير من الأماكن المظلمة داخلي، بكلماتها وحبها ونصحها ودفئها.

شكراً روندك.

شكراً عهد أحمد الفتاة اللطيفة التي عملت على تدقيق هذا العمل.

أحبكن كثيراً

دانية قصاص.

إلى القراء الأعزاء، يسعدني أن استقبل آرائكم الجميلة بكل حب هنا:

الانستغرام:

dania_qasaas@

الفيسبوك:

دانية قصاص

دمتم بخير.

Dania_Qassas

شفق

كانت تقف على حافة الشرفة بجانب أصيصات الزرع على علو خمس طوابق، فستانها يتمايل مع نسمات الهواء، اقترب منها بحذر وهدوء، ناداها فلم تجبه، كرر النداء فتكررت ردة الفعل المعدومة، كانت تبدو كأنها ليست في وعيها لا تسمع ولا تجيب ولا ترى، صرخ بها:
- شفق انزلي أرجوك.
استدارت نحوه ببطء، قطبت حاجبيها لرؤيته، ثم ابتسمت ببرود ولوحت بيدها أي وداعاً، وأبعدت أول قدمٍ لتخطو للأسفل!

• غلاف الرواية: ولاء حوا